أسس جزئية في تصنيف الشعراء لدى محمد بن سلام

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

* * *

أقام محمد بن سلاّم كتابه على الطبقة وأقام الطبقة على التشابه في الفحولة ، وكان له بذلك « طبقات الشعراء الجاهليين » و « طبقات شعراء الاسلام » . واذا رجعنا الى الكتاب (١) وجدنا بين القسمين عددا من الشعراء وزعوا على غير هذا الاساس ، فبعد ان ننتهي من الطبقات العشر الاولى نقرأ (ص ١٦٨ – ٢٤٨) : « ... وصيرنا أصحاب المراثي طبقة بعد العشر .. اولهم متمم بن نويرة ... والخنساء .. وأعشى باهلة ... وكعب بن سعد » .

ونقرأ : « شعراء القرى العربية وهي خمس : المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين ، اشهرهن قرية المدينة . شعراؤها الفحول خمسة .. حسان .. ، كعب بن مالك .. ، عبد الله بن رواحة ، قيس بن الخطيم وابو قيس بن الاسلت ... واشعرهم حسان » .

« بمكة شعراء فأبرعهم شعرا عبد الله بن الزبعري وابو طالب والزبير بن عبد المطلب وابو سفيان ... ومسافر ... وضرار بن الخطاب ... وأبو عزة الجمحي ... وعبد الله بن حذافة ... وهبيرة بن ابي وهب ... » « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وانما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء نحو حرب الاوس والخزرج، او قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائره ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان . وأهل الطائف في طرف ، ومع ذلك كان منهم : أبو الصلت ... وابنه أمية بن أبي الصلت وابو محجن ... وغيلان ، وكنانة بن عبد ياليل ... »

« وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة ، منهم المثقب العبدي .. والمزق العبدي ... والمفضل بن معشر ... »

« ولا اعرف باليمامة شاعرا مذكورا ... »

« وفي يهود المدينة واكنافها شعر جيد ، منهم السموأل والربيع وكعب بن الاشرف ، وشريح ، وشعية بن الغريض ، وابو قيس بن رفاعة ، وابو الذيال ودرهم بن يزيد » .

نقرأ هذا في كتاب « طبقات الشعراء » فنسائل ، هل كان هذا في أصل الكتاب ؟ او انه جزء من كتاب اخر للمؤلف نفسه ؟ او انه مادة حشرت لغير مسوغ ، قد يكون بينها ما لم يكن لابن سلام ؟ واسئلة أخرى ...

وليس لدينا للاجابة ما يقطع بأمر ، لان كتاب « طبقات الشعراء» لم يصل الينا كاملا كما صنفه صاحبه ، ولان مقدمة الكتاب لم تصل الينا كاملة كذلك .

ولهذا ، فمن الممكن القول ان هذا القسم الوسطي المعترض ليس من صلب كتاب « طبقات الشعراء » . ومن الادلة على ذلك :

١– ان مادته لم تجمع على شرط الكتاب ولا على اساس التشابه في الفحولة في السلم الطبقي .

٢ – عودنا ابن سلام المنهجية ، فما يبدأ طبقة حتى يزيد عليها ثانية وثالثة ... معتمدا مقياسا واحدا . اما هنا ، فنرى اصحاب المراثي ولا نرى بعدهم أصحاب المدائح او اصحاب الاهاجي ...

٣ – وانما نرى بعد اصحاب المراثي : « شعراء القرى العربية»، ولا يذكر المؤلف انه جعلهم طبقة (٢) ولا يسمى شعراء كل قرية طبقة او يلتزم ان يكون « اربعة رهط كل طبقة » .

هذا الى انه لم يشر في أي مكان الى انه قسم كتابه الى شعراء بادية وشعراء حاضرة ، ولم ينص على ان الطبقات العشر الذين ذكرهم من الجاهليين شعراء بادية .

٤ – ولم يذكر ان شعراء اليهود طبقة (٣) ، ولم يجعلهم اربعة او اربعتين (وعددهم ثمانية) .

واذا صدقنا ان شعراء القرى فحول جديرون بالاختيار ، فانه يصعب ان يكون هؤلاء اليهود فحولا . وقد يكون السموأل فحلا في بابه ، ولكن يصعب جدا ان يكون الاخرون – ومنهم أبو قيس بن رفاعة وأبو الذيال – فحولا ، لان شعرهم لين جدا وعلى غاية من الركة .

واذا كان هناك شعراء يهود ، فلم لا يكون شعراء نصارى ...

٥ – واذا عددنا هذا القسم ذيلا لطبقات الجاهليين ، فلم لا نرى نظيره بعد طبقات الاسلاميين وهو امر غير مستحيل ان يجده ابن سلام لو اراده ، بحكم عقله المنهجي المنطقي ، وبمدد من علمه الغزير . انه يستطيع ان يجمع بعد الطبقات العشر الجديدة جماعة على الفرض الشعري ، وجماعة على البادية وجماعة على المذهب .

اذ أمكن ان نخرج بهذه الادلة القسم المعترض من الكتاب الذي بين ايدينا ، فان من الممكن بأدلة أخرى ، أن نقبل الكتاب كما هو . ويبدو ان لا بد لنا من هذا في الوقت الحاضر ، فهكذا مر الكتاب – او مرت مخطوطته في الاقل – على القرون ، وهكذا قبله الباحثون الذين حققوه او اخذوا عنه او درسوه (٤) . بل ان بين شعراء هذا القسم من لا بد من ان يضمهم كتاب ابن سلام ، وحسبك ان يكون من هؤلاء : حسان بن ثابت والخنساء وأمية بن أبي الصلت .

ولنا ان نتصور ان ابن سلام – بعد ان وزع الاربعين من شعراء الجاهلية على الطبقات العشر – بقي لديه عدد اخر له قدره واهميته لا بد من ان يقول كلمة فيه ، فنظر وقدر فرأى ان يجمع الشاعر الى الاخر بمقياس جديد فصنفهم الى (١) اصحاب المراثي (٢) شعراء القرى (٣) شعراء اليهود . ولا يخلو عمله هذا مما يسوغه فنيا ، فقد قرب التمييز بغرض معين بين قوم فكان أساسا للجمع بينهم ، وقربت « القرية » بين اخرين فاتخذها اساسا لتوزيع الى مجاميع فرعية ، وقرب الدين بين اخرين فكانوا مجموعة ثالثة .

وسواء أخرجنا هذا القسم المعترض من الكتاب ام عددناه جزءا منه فان نسبته الى ابن سلام باقية ، اذ يصعب ان نقول ان جملة هذا القسم دست على الكتاب من مؤلفين اخرين ، لان نفس ابن سلام قائم لدى الحديث عن هؤلاء الشعراء ، ونهجه بين ، واذا فالعبرة باقية – وليس المهم هو الكتاب بأجزائه وورقه ، وانما المهم تبويب الشعراء على أسس جديدة ، وان يكون هذا التبويب قد حدث في زمن مبكر (القرن الثاني – الثالث للهجرة) .

الاسس مقبولة في بابها ، ويمكن ان تعد فنية في بعض وجوهها ، وان الدراسات على هذه القواعد الجامعة لم تظهر الى الوجود مبكرا ، واننا – في العصر الحديث – لم نخلص اليها الا بعد ان قطعنا شوطا

---

(١) اعتمدنا طبعة دار المعارف – بمصر ١٩٥٢ شرح محمود محمد شاكر ، وقد صدر باسم « طبقات فحول الشعراء » وكلمة « فحول » الواردة في العنوان من زيادة الشارح واجتهاده . (٢) جاء على ص ١٧٩ : « طبقة شعراء القرى .. » – وكلمة طبقة مما زاده الشارح الاستاذ محمود محمد شاكر . (٣) جاء على ص ٢٣٥ « طبقة شعراء اليهود » وكلمة طبقة مما زاده الشارح .. (٤) الا ما كان من الدكتور محمد زغلول سلام فانه قال على ص ١٠٦ من كتابه « تاريخ النقد العربي – ١ » : « ربما كان حديث ابن سلام عن شعراء المدن مختصا بكتاب اخر غير طبقات الفحول وأدمج فيه نتيجة خلط الناسخين ...»

طويلا ، وبعد ان افدنا من الغرب ورأينا الدراسة على أساس الغرض او الموضوع اكثر فنية مما سواها ، واستقبلنا مراعاة البيئة في النقد على أنها فتح فكري .

وفضل محمد بن سلام بين في سبقه وتبكيره ، وكم كان بودنا لو علمنا الدوافع الحقيقية التي دفعت به الى هذه الاسس والى اتخاذه اياها قواسم مشتركة ، وعلمنا مدى تحديد ابن سلام نفسه لهذه الاسس في السلب والايجاب . ولنر .

جمع ابن سلام اربعة من الشعراء (اربعة ايضا !) وسماهم « طبقة أصحاب المراثي » ونقل بعض اخبارهم وروى ابياتا من اشعارهم ، وانتهى الامر . فلم يقل بم تشابهوا ، وبم اختلفوا . وكان بامكانه ان يقول ويعلل ، وبامكانه ان يخبرنا السبب الذي جعل متمما المقدم عنده ، فلا بد من ان يكون لديه سبب ، وهو في عصر يعنى بالسبب . وذلك اهم - في تاريخ النقد - من سرد قصة قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة ، لان مجال هذه القصة الكتب الاخرى التي تعني بالتاريخ والاخبار ، ولكنها صفة الراوية والاخباري التي تغلب على المؤلف فتسيره - وتجرفه - وجهة خاصة .

واذا كانت اسئلتنا هذه غير واردة ، وانها قد تحمل الرجل اكثر مما يحتمل ، فهناك سؤال اخر لا يرتفع عن المستوى لانه في صميم الموضوع وفي صميم العملية التصنيفية ، أجل ، فلم خص أصحاب المراثي بطبقة دون من سواهم ؟؟

اقتطع الدكتور محمد مندور القضية ووسع المحدود وغلبت عليه الحماسة عندما قال - وهو يتحدث عن المبدأ الثالث من المبادىء التي قسم ابن سلام بمقتضاها الشعراء ، - أي الفن الادبي - : « . . لقد فطن ابن سلام بذوقه الادبي السليم الى ان هؤلاء الشعراء ليسوا كغيرهم ممن صدروا عن فن ، بل هم انسانيون ، قالوا الشعر لشفاء نفوسهم مما تجد ، فلم تأت مراثيهم مدحا للميت فحسب بل عبارة عن ألمهم لفقد ذويهم حتى ان المديح نفسه ليلون الاسى ولذلك افردهم - فيما يظن - بباب خاص وان لم يذكر السبب . . » (٥)

وفي هذ تحميل في التعليل اكثر مما يطاق ، فان اكثر شعراء العرب الجاهليين انسانيون (وجدانيون) « يقولون الشعر لشفاء نفوسهم مما تجد » في كل غرض ، حتى في المديح والهجاء والوصف، ناهيك عن الغزل والنسيب والحماسة . ولو كان ابن سلام على الدرجة التي ظنه عليها الدكتور مندور لاقام كتابه كله على الاساس الذي سماه بالفن الادبي ، ولجعل لكل غرض شعراءه (وليكونوا اربعة) في الرثاء والحماسة والغزل ... الخ ، ولكن هذا لم يحصل ، بل انه لم يقع - اذ وقع - الا مرة واحدة في غرض واحد .

هذه المرة جديرة بالوقوف عندها ، قمينة بالاحترام ، بشرط الاعتدال ، وان يكون ذلك في حدود ضيقة هي حدود التبكير والتجريب، علما ان مسميات الاغراض كانت معروفة في عصر المؤلف وانها وردت في كتابه اكثر من مرة ، بل ان له معاصرا جليلا ألف كتابا جليلا اقامه على أبواب من الاغراض ، ذلكم ابو تمام الشاعر الكبير في « حماسته » التي بوبها على : الحماسة ، المراثي ، الادب النسيب ، الهجاء الاضياف والمديح ، الصفات ، السير والنعاس ، الملح ، مذمة النساء - والكتاب معروف متداول .

اننا بقدر ما نحذر من التوسع ونحذر من التعميم نلح على اكرام ذكرى محمد بن سلام ، بل اننا نستغرب ان يؤلف باحث معاصر في النقد الادبي عند العرب ويخصص مكانا واسعا للاغراض الشعرية ، بينها مكان للرثاء ، دون ان يبدأ بما عمله ابن سلام او ان يشير اليه . (٦)

ألا ان لمحمد بن سلام مكانه وفضله في الدراسة على أساس الغرض الشعري . (٧)

أما شعراء القرى (ص ١٧٩ - ٢٣٥) وعددهم اثنان وعشرون فقد وزعوا على اربع قرى دون اشتراط للارهاط الرباعية - وتلك حسنة .

وتنبع اهمية هذه المجموعة - برأي النقد الحديث - من الاساس الذي اتخذ لجمع عناصرها : أي القرية ، وان شئت : المدينة ، وان توسعت : المكان او البيئة ، فمن الثابت ان للبيئة اثرها في الشعر والشاعر ، وان القرية غير البادية ، وان القرى يختلف بعضها عن بعض ، وان ابن سلام لم يكن ليجهل ذلك . وكنا نود - نود فقط - لو ان شرح العوامل التي دفعت به الى هذا الاساس في التقسيم ، وبين ما فيه مما يؤدي الى التشابه (والاختلاف) ومما يمكن ان يفعل في درجة الفحولة نفسها ، ولكنه لم يفعل ذلك ، ولعله ، لو فعل ، لقال شيئا ينفعنا ويزيده رفعة الى رفعة ، فقد اورد تعليلات جزئية بشان شعر الطائف وشعر عدي بن زيد لها دلالتها وقيمتها .

ولا شك في اننا اليوم نعجب بابن سلام ونقدر ان يرد في كتابه الماح الى البيئة، فان في ذلك تمهيدا لاراء حديثة في الموضوع ونقدر ان يتخذ هذه البيئة أساسا (ولو جزئيا) من اسس التصنيف والدراسة،وها نحن في دراستنا الحديثة نميل - احيانا - الى ان نحدد موضوعنا ببيئة معينة - ولكن يجب الا نبالغ في الاعجاب ولا نتمحل في التعليل.

كان الجيل الذي ادركه محمد بن سلام « يعرف » اهمية « المكان » عامة وخاصة ، ولكن المعرفة الخاصة لم تكن من أجل معنى فني ، وانما كانت من أجل غرض لغوي صرف تستدعيه الرواية وتميز به فصاحة الكلمة . اما ابن سلام فيبدو انه سار بهذه المعرفة خطوة - ولو قصيرة - في طريق النقد الادبي بمعنى اوسع من معاني ميادين اللغة والرواية .

ولكن خطوته النقدية ظلت دفينة في كتابه ، فلم ينتبه اليها معاصروه ولا من جاء بعدهم يؤلف في الادب والبلاغة (والنقد) . ومضت قرون وقرون حتى تهيأ للكتاب رجل ألمعي درس النقد الغربي (الفرنسي) واستوعبه فكان أول من نبه الى منزلة ابن سلام ذلكم طه أحمد ابراهيم اذ قال - فيما قال - : « وهو في تقسيمه الشعراء الجاهليين الى بادين وحاضرين مؤمن بأثر البيئة في الشعراء ، وهو

ومما يذكر ان الذي اورده الدكتور سلام كنت قد اثبته مفصلا بصدد مجموع القسم الوسطي في مسودة كتاب لي عن محمد بن سلام . ولا اقصد بهذه الملاحظة الى اكثر من الدلالة على وجود ما يسوغ التفكير بالامر بعد ان تنبه اليه - بعضا او كلا - اكثر من باحث مدقق في الكتاب في آن واحد . ولعل الانتباه الى هذا الامر الجزئي اصبح طبيعيا بعد ان سبقنا الباحثون في وقفاتهم لدى امور كلية . وليلاحظ ان من وقعت بيده مخطوطة المدينة للكتاب سمى شعراء القسم المعترض: « المتفرقة » . (٥) مندور ١٢ (- ١٣ ط ٢) . ويظهر ان بدوي طبانة كان ينقل كلام مندور الى لغة أسهل ومعنى أيسر اذ قال : « ومن جهة ثالثة نظر ابن سلام الى الشعراء من ناحية فنون الشعر وابوابه ... اقتصر على المجودين في المراثي ، ولعل السبب في تخصيصه تلك الطائفة ... بالذكر دون غيرهم من الذين عالجوا سائر الاغراض ان شعر الرثاء هو اغزر الوان الشعر بالعاطفة ، فهو شعر الحسرة واللوعة الذي يبين فيه الشعور الصافي والعاطفة الصادقة ... » ص ١٢٢ من كتابه « دراسات في نقد الادب العربي » - ط ٣ (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٠ . (٦) نقصد الى احمد أحمد بدوي في كتابه « اسس النقد الادبي عند العرب » : الفصل الثالث - فنون الشعر ص ١٢٤ (- ١٣٤ ط ٢) ... الرثاء ص ٢٠٨ من ط ١ ... - ط ١ سنة ١٩٥٨ وط ٢ سنة ١٩٦٠ (مكتبة نهضة مصر) . (٧) الغرض والاغراض ، مصطلح نقدي خاص بالشعر ، ورد مبكرا في أمات الكتب التي تحدثت عن الشعر ، فقد ورد - مثلا - لدى قدامة بن جعفر (المتوفى اوائل القرن الرابع) ، ص ٢٣ من نقد الشعر (ط. اوروبا): « ... اغراض الشعراء ... المديح ، الهجاء ، المراثي ، التشبيه ، الوصف ، النسيب ... » - وتنظر منه ص ٦٥ ، ٧٠ ، ولدى ابن

في قصره الطبقات على البدو وحدهم مؤمن بأن الشعر الجاهلي في جملته شعر بادية » (٨) ، وقال : « وفكرة .. تتصل بما دعوناه النقد الموضوعي ... اتضحت عند ابن سلام اكثر من ذي قبل ونظمت تنظيما علميا صحيحا يستند الى الفكر والى ربط الامور باسبابها ... واذا كان السابقون قد هيأوا لابن سلام تلك الفكرة في شعر عدي ، فان له غيرها أعمق منها وأدل على نفاذ بصيرته . فليست البيئات الجاهلية كلها سواء في انتاج الشعر عند ابن سلام ، وليست الحالات الاجتماعية الجاهلية تثمر احداها في الادب ما تثمره الاخرى . يقول : وبالطائف شعراء وليسوا بالكثير ، لماذا لم يكثر الشعر في الطائف أيام الجاهلية ؟ لان الشعر انما يكثر بالحروب التي بين الاحياء ... وهو في الفكرة الاخيرة ينظر الى البادية ... » (٩)

ليس في كتاب « طبقات الشعراء » ما ينص صراحة على ان ابن سلام قسم الشعراء الى بادين وحاضرين ... الخ ، ولكنه مما يمكن ان يستنبط لدى بلوغ « شعراء القرى » منه . وابن سلام يلمح الى الاثر البيئي ، ويتكىء اليه أحيانا ، وله في ذلك فضل مشكور ، ولكن القول بانه « يؤمن بأثر البيئة » يستدعي أدلة اكثر .

ومع هذا ، فيمكن ان نقول ان الباحث الحديث لم « يتطرف » كثيرا ويكفي انه جعل حديثه عن البيئة في مجرى الكلام على الافكار العرضية عند ابن سلام . لقد كان طه احمد ابراهيم معتدلا بعض الشيء ، ولكننا نخشى ان تخرج عن الاعتدال . ويبدو ان لهذا الخروج دواعيه البراقة .

وقد عد الدكتور محمد مندور « المكان » اساسا مهما جدا لدى محمد بن سلام اذ جعله ثاني المبادىء الثلاثة التي قسم بها الشعراء ، وقال : « ... نظر فوجد ان هناك شعراء لم يصبحوا شعراء للعرب كافة ، بل ظلوا متصلين كل (كذا) بقريته وهم ما يمكن ان نسميهم بالشعراء الاقليميين فجمعهم في باب شعراء القرى ... هذه الظاهرة من مخلفات الروح الجاهلية ، روح الاقليم والقبيلة التي لم يستطع الاسلام ان يمحوها فظلت مصدرا للفتن والقلاقل في تاريخ العرب السياسي ، وللمفارقات والتلوين في تاريخهم الادبي ... » (١٠)

ولا يخلو التفسير من بعد عن الحقيقة ، ولا ندري لم أثقل الدكتور مندور الموقف فافهم ـ عن لسان ابن سلام ـ ان شعراء العرب طائفتان : (١) شعراء للعرب كافة (٢) وشعراء لم يصبحوا للعرب كافة ، فلا نخال التقسيم مستمدا من طبيعة الحياة العربية ولا من مفهوماتها او من تاريخ الادب العربي في عصوره الاولى ، وانه ليس مستمدا ـ على اي حال ـ من عمل محمد بن سلام الذي نحن بصدده.

اننا لا ندري كيف نستطيع ـ اليوم ـ الحكم على الاسود بن يعفر أو سويد بن أبي كاهل أو عوف بن عطية او حريث بن محفظ .. الخ ـ وهم من شعراء الطبقات العشر ـ بأنهم كانوا شعراء للعرب كافة ، وبأن حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم وأمية بن أبي الصلت والمثقب العبدي ... الخ ـ وهم من شعراء القرى العربية ـ كانوا أضيق مدى من أولئك ، وانهم كانوا اقليميين .

انه حكم صعب ، واقرب الى الاستحالة ، ولا يسهل القول به الا عند الاكتفاء بمطلق العنوان اي شعراء القرى ، والرغبة في تحميله من النظريات الحديثة ما لا تحمله اياه ادامة النظر في محتوياته ومقابلته بمحتويات الطبقات الاخرى .

اما القسم الثاني من كلام الدكتور محمد مندور « هذه الظاهرة ... الخ » فهو غير واضح ، ولعله في غير مكانه ، لان الاسلام ليس اساسا بينا في التقسيم ، كما ان المفروض في روح القبيلة ان تكون أقوى لدى البدو ولدى غير المسلمين ـ اذا كان من داع لذكر الاسلام في هذا الموضوع .

وبعد ، فيخشى ان يجر التطرف في النظر الى « ايمان ابن سلام بأثر البيئة » الى ان نقارنه بتين Taine ونعد هذا تابعا لذاك ، ومن يدري ، فقد تجر الحماسة الى ذلك دارسا ناشئا او جاهلا لم يدرس تين ولم يلم بلغة أجنبية .

نخلص من هذا الى ان محمد بن سلام المح ـ بشكل من الاشكال ـ الى اثر البيئة ، وانه قسم عددا من الشعراء بمقتضى نظر بيئي ، واننا يجب ان نصطاد عمله في بحثنا قضايا النقد الادبي ومقدمة الماضي للحاضر ، ولكنه اصطيادا اكثر منه شيئا اخر ، وهو الماحا اكثر منه ايمانا بالقضية او مبدأ رئيسا في التقسيم .

ان وضع ابن سلام في حاق مكانه لا يقلل من شانه ، وان الحماسة لا تجدي كثيرا في البحث العلمي ـ الا ان لمحمد بن سلام مكانه وفضله في الدراسة على الاساس البيئي .

بقي لدى ابن سلام ـ بعد اصحاب المراثي وشعراء القرى ـ ثمانية شعراء جمعهم برابطة اليهودية واوردهم كأنهم ملحقون باهل المدينة . ومع هذا فان الرابطة جديدة . وواضح انها تقوم على « الدين » والالتفاتة جيدة ، فمن الممكن جدا اتخاذ الدين اساسا فى التصنيف وموضوعا للدرس ، لانه عامل يؤدي الى آثار خاصة في العمل الفني ، وانه تيار من التيارات التي جرى فيها الشعر ـ وهو ضرب من الالتزام .

ويطمع القارىء الحديث ان يجد ـ في الحالة التي خصص لها ابن سلام مكانا معينا ـ أشياء يثيرها العنوان ، واهمها عنصر التشابه في اليهودية . فبم التقى هؤلاء الشعراء ؟ انهم يهود ، ولكن أين اليهودية في شعرهم ؟ وبم يختلفون عمن سواهم ؟؟

أسئلة لا نجد لها جوابا ، فلم يزد ابن سلام على تعداد الاسماء وذكر الاخبار والشواهد دون اية صلة بالدين كأن المسألة مسألة تصنيف ليس غير او انها تصنيف ورواية . وفي هذا دليل على ان الامر قد يكون طارئا (١١) . ويزيد من ضعف صلة اساس التقسيم من نفس المؤلف انه لم يعالجه الا المرة واحدة ، هي هذه ، ولم يسأل نفسه عما اذا كانت النصرانية تصلح لان تكون مجموعة خاصة ، وعما اذا كانت عبادة الاصنام ، يمكن ان تكون كذلك او مما يلمح الى شيء

رشيق (المتوفى سنة ٤٥٦) في العمدة ١ : ١٢٠ ، « قال الرماني علي بن عيسى (المتوفي سنة ٣٨٤) : اكثر ما تجري عليه اغراض الشعر خمسة : النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ، والوصف ... » ، ولدى العسكري في الصناعتين (ط ١ ، دار احياء الكتب العربية) ١٣١ : « ولما كانت اغراض الشعراء كثيرة ، ومعانيهم متشعبة ... المدح ، الهجاء ، الوصف ، النسيب والمراثي والفخر ... » وهناك كلمات اخرى لم تكتسب في الدلالة من الخصوص ما اكتسبته كلمة غرض ، منها ما ورد في كتاب ابن سلام نفسه وهي : الفن ، البيت ، الضرب (تنظر ص ٤ ، ٥ ، ١٧٤ ، ٣١٥) ، وكنا نود لو ان الدكتور احمد احمد بدوي اختار كلمة « اغراض » بدل « فنون » ، اما بصدد ما ذكره في الحاشية من ان كلمة « بيوت الشعر » وردت في ثمار الاوراق ، فنقول انها وردت قبل ذلك لدى ابن سلام . والخشية ـ اليوم ـ من استعمال « فن » تأتي من ان الكلمة واسعة وغير محدودة في معناها الاصطلاحي . ثم انها قد تصبح « نوعا » ويأتي باحث كأحمد الشايب فيطبق نظرية برونتير تطبيق من سمع فقط ينظر كتابه «ابحاث ومقالات» ـ ص ٢١٥ ـ . (٨) طه احمد ابراهيم ٨٥ ـ وانتفع الدكتور احمد احمد بدوي براي طه اذ قال في حديثه عن محمد بن سلام وكتابه طبقات الشعراء في المجموعة الثانية من كتابه « في النقد والادب » المطبوعة سنة ١٩٦١ ، ص ١٢٠ : « ومؤلف كتاب الطبقات يؤمن بأثر البيئة المكانية في الشعراء ، فهو قد قسم الشعراء الجاهليين الى اهل البادية والحضر ، وقصر الطبقات على الشعراء البادين وحدهم ، ولعله يرى ان الشعر الجاهلي الصميم هو هذا الذي ينبت في البادية » . (٩) طه احمد ابراهيم ٨٥ ، ٨٦ ـ ٨٧ .. وينظر محمد زغلول سلام ١٠٦ . (١٠) مندور ١٢ (ـ ١٣ ط ٢) . ومما يذكر ان

من آثارها . ثم جاء الاسلام ، وكان له اثره في الشعر والشعراء ، ولكن ابن سلام لم يخصصه بعناية معينة .

ان موقف ابن سلام من الاساس الديني لا يختلف كثيرا عن موقفه من الاساس الذي سميناه في العصر الحديث « الفن الادبي » او الذي سميناه « المكاني » ولكنه لم يحمل من الدارسين المعاصرين لنا ما حملا . ولو كان للدراسة على أساس الدين في النظرية النقدية الحديثة ما « للفن » و « البيئة » لما توانى هؤلاء الدارسون عن اطالة الاستنتاج والقول ان ابن سلام قسم الشعراء العرب تبعا لاربعة مبادىء بدلا من ان يقفوا عند ثلاثة ، ولقالوا انه « يؤمن » بأثر الدين ... ولقالوا أشياء اخرى لا نستبعد ان نسمعها يوما ما .

وذكر لابن سلام بصدد اسس التقسيم المبدأ الزمني ، واستنبط ذلك من تجزئته كتابه او عمله الى قسمين : (١) طبقات الشعراء الجاهليين (٢) طبقات الاسلام . والتقسيم معقول ، ويمكن ان يحمل دلالة تاريخية وان يعد مبكرا في التأليف الادبي على اساس العصر وان يتخذ سابقة تزاد عليها العصور الاخرى كلما تقدم الزمن وفي ذلك بيان لمنزلة المؤلف .

ولا بد لنا - خوفا من المبالغة في اعلاء هذه المنزلة - من ان نتذكر ان مسألة العصرين المتميزين - بهذا المعنى - كانت في متناول ابناء زمانه ، وهي اساس بديهي لدى الدارسين كافة ، ولدى اللغويين بخاصة ، ذلك انهم لم يكونوا يجيزون الاستشهاد بغير الجاهلي ، وان الفاصل الزمني - هنا - شرط في فصاحة اللفظة وصحتها وقبول روايتها والمحاجة بها .

لقد تحرجوا طويلا من الاستشهاد بشعر العصر الاموي ، ولم يجرؤا على الاعتراف بكبار شعرائه ، وعدوهم مولدين محدثين ، فقال ابو عمرو بن العلاء : « لو ادرك الاخطل من الجاهلية يوما واحدا ما قدمت عليه جاهليا ولا اسلاميا » (١٢) ، وقال ، « لقد احسن هذا المولد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته - يعني بذلك جريرا والفرزدق ... » (١٣) ، وقال الاصمعي : « جلست الى أبي عمرو ابن العلاء عشر حجج فلم أسمعه يحتج ببيت اسلامي» (١٤) ، وقال الاصمعي نفسه في جرير والفرزدق والاخطل : « هؤلاء (لو) كانوا في الجاهلية كان لهم شان ، ولا اقول فيهم شيئا لانهم اسلاميون » (١٥) ، وقال : « الكميت بن زيد ليس بحجة لانه مولد ، وكذلك الطرماح » . (١٦)

اذا ، فالمسألة - في الاصل - مسألة لغة ، ثم خرجت عن طور اللغة الى ما زادها ضيقا وفسادا وعصبية فشملت بذلك الشعر نفسه والحكم عليه ، وكان اذا سئل الراوية - والناقد - عن المولدين قال : « ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ... هذا مذهب أبي عمرو واصحابه كالاصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم - وليس ذلك الشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ثم صارت لجاجة » (١٧) - ولفظة « اللجاجة » هذه دلالة بالغة وجديرة بالاعجاب وهي مفتاح لعقليته .

وفضيلة ابن سلام انه لم يقع في لجتها وانه تقلب - قليلا - على معراتها فزحف - شيئا - عن مرتكز اساتذته فكان من اوائل من اعترف بالاسلاميين وفسح لهم مجالا واسعا من علمه وصدرا رحبا من كتابه ، وتلك فضيلة تسجل له ، وقد يكون لصفة الناقد فضل في هذا الفضل ، ولكنه ناقد راوية ، او انه - ان شئت - راوية ناقد ، بمعنى انه لم يجرؤ على ذلك لو لم يثبت المحدثون مكانتهم ويستطيعوا ان يصبحوا سندا لغويا لا يقل في الشأن كثيرا عن اسلافهم ، فكأنهم عدوا قدماء - او عدوا - (١٨) تقف عندهم الرواية ، وينتهي بهم المطاف ، حتى اذا قال محمد بن سلام نفسه : « ... الى اليوم » كان يعني عصر جرير والفرزدق .

لقد ادرك ابن سلام الدنيا لدى منعطف ، فتمكن ان يتقدم خطوة تحفظ له ذكرا على قصرها ، والا فقد كان ممكنا جدا ان يثبت حيث تركه عمرو بن العلاء ، وحيث ثبت اخرون يورثون تزمتهم وجورهم اجيالا تالية « يستجيدون الشعر السخيف لتقدم قائله .. » (١٩)

ان الدارس الذي يبحث عن مطلق التأليف على أسس الزمان يجد عند ابن سلام بغيته ، ألم يأت كتابه على : جاهلي واسلامي ، أجل ، لقد جاء ، فكفى .

ولكن لا ، ان مسألة الزمان لم تكن من الدلالة على ما يريدها من يعتدها مفخرا عاليا جدا ، ذلك انها وقفت من التأليف لدى التبويب الى قسمين او الى كتابين (٢٠) ، اي انها كانت مسألة حد فاصل - مسألة زمان فقط . أما بعد ذلك فقد جمع المؤلف الشعراء في طبقات دون نظر - اي نظر - الى جاهلية وآثارها ، واسلام وآثاره ، فلم يربط الزمن بما يعتريه ويستقر فيه وما يصحب دورانه من تغيير ، حتى كأن الاسلام لم يأت ولم يحدث تبديلا .

لم يكن لابن سلام معدى من ان يقف عند الاسلاميين وحدهم (٢١)، ولكنه لم يخصص للمخضرمين بعدا زمانيا (٢٢) ، ولم يضع فاصلا بين اسلامي في زمن الرسالة والخلفاء الراشدين واسلامي في العصر الاموي ، بل انه قدم شعراء مخضرمين على جاهليين فقد جاء النابغة الجعدي قبل طرفة ، والحطيئة قبل عبيد بن الابرص ، وتميم بن أبي بن مقبل والمخبل السعدي قبل عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

لو كان الزمن مهما جدا لجمع الطبقة الواحدة من أربعة ارهاط متقاربين زمنا ، ولجعل - فيما جعل - « طرفة وعبيد وعمرو بن قميئة والمتلمس » طبقة ، لانه يعلم جيدا انهم « في عصر واحد » (٢٣) ، ولجعل الطبقة الاولى في سلمه الاقدم زمنا ثم التي تليها ... وهذا ما لم يحدث قط ، وما لم يرد اليه . لقد كان صريحا في تصنيفه وصريحا في الاساس الذي اتخذه للتقسيم ، الا وهو التشابه في درجة الفحولة ، وقد التزم المبدأ أشد التزام ، اما ما عداه فأمور طارئة ليس من حقها ان تشغل الباحث عما هو اولى واهم واخطر (٢٤).

ان مسألة الزمن من الاسس العابرة الجزئية ، وكان الدكتور محمد مندور أول من نص عليها وجعلها المبدأ الاول من ثلاثة قسم تبعها ابن سلام الشعراء ، قال : « جعل منهم - اي من الشعراء - مجموعتين جاهليين واسلاميين ، وهذا تقسيم لم يكن منه مفر ، لان الامر لا يقف عند مجرد سير الزمن بل يعدوه الى مضمونه ، وقد جاء الاسلام فأحدث في حياة العرب ثورة روحية ومادية كانت لها آثارها البعيدة في كل مظاهر نشاطهم » .

دكتور بدوي طبانة جعل البيئة لدى ابن سلام نظرة ثانية - ص ١٣٢ ، ولكنه تجنب ان يخوض فيما خاض فيه مندور . (١١) قال الدكتور محمد زغلول سلام ص ١٠٦ : « وافرد في اخر الكتاب الكلام عن شعراء اليهود ، وهذا الكلام لم يدخل ضمن تقسيمه الاساسي للطبقات أيضا ولعله كتاب مفرد له اراد تصنيف الشعراء فيه حسب دياناتهم ... » (١٢) الاصمعي - فحولة الشعراء ٢٤ . (١٣) ابن رشيق ١ : ٩٠ . (١٤) ابن خلكان ٣ : ١٣٦ ، وينظر ابن رشيق ١ : ٩٠ . (١٥) الاصمعي، ٢٤ . (١٦) الاصمعي ٤٠ . (١٧) ابن رشيق ١ : ٩٠ - ٩١ . (١٨) ابن قتيبة ١١ . (١٩) ابن قتيبة ١٠ . (٢٠) ينظر طه احمد ابراهيم ٨٣ .

(٢١) وكنا نود - نود فقط - لو تعداهم فاتخذ لابناء عصره من شعراء القرن العباسي الاول مقعدا ، ولكن ، للرجل عقليته ولعمله مسوغاته ولكتابه ظروفه . (٢٢) وان كان يعلم مدلول مصطلح « المخضرمين » ينظر كتابه ص ٢١ ، وقد استحسن هذا الاستاذ محمود شاكر في مقدمته للكتاب ص ١٦ ، ٢٠ - ٢٢ . وليس ظاهرا في الكتاب ما ذكره دكتور بدوي طبانة ص ١٣١ من « انه قسم الشعراء بحسب ازمانهم الى جاهليين ومخضرمين واسلاميين » . (٢٣) ابن سلام ٣٤ . (٢٤) كما شغل مندور ١١ - ١٢ (- ١٢ ط ٢) . (٢٥) دكتور بدوي طبانة ١٣١ . (٢٦) استعان الدكتور طبانة بالاستاذ احمد الشايب .

شرار العيون

عيونك يقدح منها الشرار — ففي العين نار وفي القلب نار
فوا نار قلبي لحسن القوام — وهذا الجمال وذاك العذار
فشعرك مثل اسوداد الليالي — ووجهك مثل انبلاج النهار
وصوتك أطرب عندي وأشجى — بسمعي من زقزقات الكنار
وغمازتان بورد الخدود — بخد اليمين وخد اليسار
فعقدة شعرك تربط قلبي — بحقك شدي عليه الاسار
فقلبي أسيرك لا تطلقيه — فيصعب هذا عليه الفرار
تعالي وخلي العواذل تهذي — تعالي ليالي الصفاء قصار
وسيري مليء جفوني ورفقا — بحلم اذا ما توجف طار

زحلة ـ لبنان — رياض معلوف

القول مقبول ، ولكن ما صلته بعمل محمد بن سلام نفسه ؟ الصلة ضعيفة جدا ان لم تكن غير كائنة ، ولا أدل على ذلك من ان مندورا نفسه ادرك الموقف وادرك انه حمل الموقف اكثر مما يطيق او انه قدره على اكبر مما يكون ، ففير لهجته فجاة وقال : « واذن فاتخاذ الزمن اساسا للتقسيم امر لم يكن منه بد ، بل ان في الفاظ ابن سلام نفسه ما يدل على أنه لم يقصد الى هذا التقسيم ولم يفكر فيه ، بل املته طبائع الاشياء ، وانما كان تفكيره منصرفا الى توزيع شعراء العهدين في طبقات تبعا لجودة شعرهم وكثرته ... »

فاين هذا من ذاك ؟ وما قيمة الـ « اذن » الواردة ، بل ما قيمة ابن سلام في مبدأ الزمان ؟ لقد نسف مندور بالاسطر الاخيرة ما بناه في الاسطر الاولى .

ولا يخشى من مندور كثيرا ، لانه استدرك ، او انه ـ في اقل تقدير ـ اضعف الشأن . وانما الخوف ان يأتي اخرون فيأخذون كلمة « الزمان » الواردة لديه ويحملونها ما لا تطيق وما لم يكن في علم الفرب عنها فيقولون ـ مثلا ـ : « ومن هذه الطرق التي سلكها (٢٥) ـ ابن سلام ـ الطريقة التاريخية The Historical Method ولا ندري المقصود بذلك ولا يمكننا ان نلجأ في توضيحه الى من لا يعرفه (٢٦) .

الا لا بأس في ان يذكر لابن سلام فضل في مسألة الزمان ، ولكن البأس في ان تجسم المسألة ويخرج بها عن حدودها الضيقة جدا .

ان ادامة النظر في كتاب « طبقات الشعراء » يمكن ان تؤدي الى العثور على أمور كثيرة ، ولا يقدم الباحث عن أسس جزئية للتصنيف ان يعثر على ضالة له وان ينتبه الى ما قد يخفى على قارئ متعجل ، ومن ذلك ان ينظر في طبقات الشعراء الاسلاميين فيجد ان الطبقة التاسعة تضم اربعة يتميزون عمن سواهم من شعراء الطبقات بصفة جامعة هي انهم اربعتهم « رجاز » وهم : الاغلب العجلي وابو النجم والعجاج ورؤبة .

والرجز يختلف عن القصيد ، ولا بد من ان تكون له صفات خاصة ، وان يكون للبارزين فيه مؤهلات معينة وان لابن سلام علما بشيء من ذلك ، ولو اشار لدلنا على أساس جديد ووقفنا على المواد المكونة لهذا الاساس ، ولكنه لم يفعل .

بل انه يجعله هؤلاء الاربعة طبقة تسبقها ثماني طبقات من أصحاب القصيد وتلحقها طبقة من أصحاب القصيد دل على انه ما زال عند مقياسه الرئيسي ـ وهو التشابه في درجة الفحولة ، فكأن هؤلاء الاربعة يأتون في الدرجة التاسعة من مطلق الشاعرية دون نظر الى شكل شعرهم وبنائه الخاص .

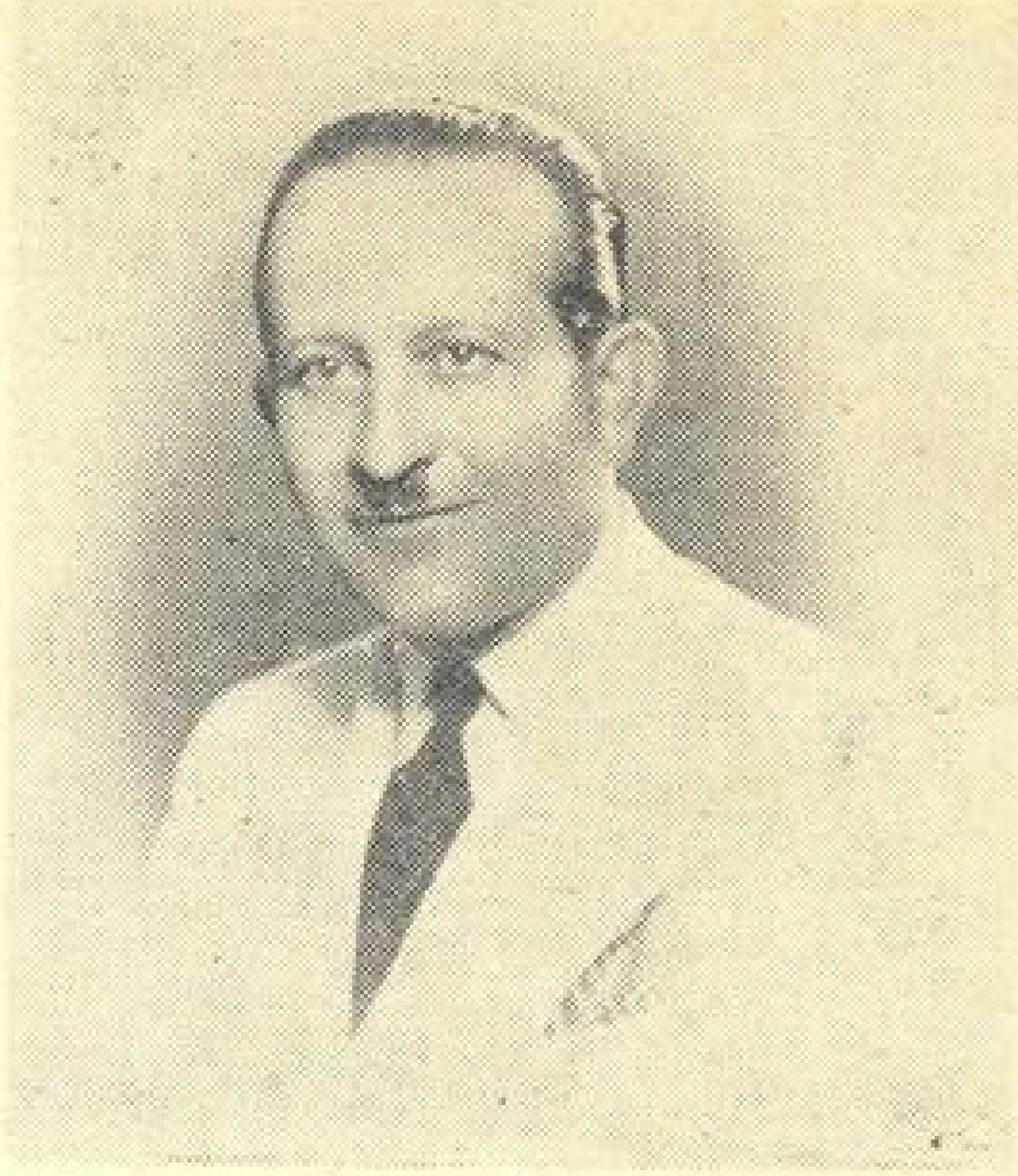
ومع هذا فقد وضع لبنة في الاساس .

لقد انصرف جل اهتمام محمد بن سلام الى الطبقة القائمة على اساس التشابه في درجة الفحولة ، فذلك كتابه ، وذلك ما ألف من أجله . اما ما جاء ـ خلال ذلك ـ من تصنيف يعتمد الرثاء مرة والقرية مرة أخرى ، فهو امر محدود ، ورد كأنه خلاف خطة البحث على المنهج ، واننا اذ نصطاده ـ ونحن نرفع من شأن المؤلف ونعمل على ربط نقدنا القديم بالنقد الاوروبي الحديث يحسن ـ بل يجب ـ ان نتحفظ ، فلا نحمل الاشياء اكثر من طاقتها فنتحدث ونسهب في الحديث عن المكان او البيئة والفن الادبي او الفرض والزمان .. وقد نضيف عامل الدين وعنصر الرجز ، ونضيف ونضيف .. أجل ، علينا ان يظل النظر فيما خلفه الاقدمون وان نكبر ما يستحق الاكبار ونصل بالاراء الحديثة ما يمكن ان يتصل شريطة الا تدفع بنا الحماسة بعيدا عن الهدف ، ولا يجرنا الوصل الى تكلف وتعسف ، ولا يذهب بنا حب الظهور بمظهر العالم بنظريات الفرب مذاهب تضحك بنا وتفضح جهلنا وتعلن تنطعنا .

ان الاراء التي وردت في كتاب « طبقات الشعراء » ـ كما وصل الينا ـ وان كانت جزئية عرضية ، فانها جديرة بالذكر والبحث قمينة بالعناية والاحترام .

اذا كان ابن سلام قد جمع وصنف ولم يعلل او يستنتج ويبين الدافع الى التصنيف والناتج منه ، فله فضل التصنيف وفضل السبق ، بل ان عصره لم ينتبه الى عمله ، ولعله لم يألفه على الوجه الذي قدمه به ، وان العصور التالية لم تلتفت اليه ولم تزد عليه ولم تستعر منه كمن لم يدرك كنهه ويبلغ شأوه ، وكأن لا بد من ان تمر عليه اكثر من عشرة قرون حتى يستثار من مكمنه ، وينفض عنه غبار الزمن ليقدر قدره .

جامعة الرياض — علي جواد الطاهر



نار الشتاء

★ ★ ★

أوقد ، فهذا اليوم يـوم شتاء … نزق العواصف هاطل الانـواء

أوقد ، فان لهيبها فـي موقدي … يحكي لهيب الشوق في احشائي

ذهب الحبيب ، ولا سمير غيرها … يلهيك عن ذكـر الحبيب النائي

للنـار ألف حكايـة وحكايـة … فأجلس أمـام الشيخة الشمطاء

أحسن لها الاصغاء ، ان حديثها … فكـه يلذ لمحسن الاصغـاء

واحذر لواذعها ، فان تعبث بهـا … نالتك منهـا لسعة الرقطـاء

قد قال فـي هجو الشتاء لسانها … مـا لـم تقله السن الشعراء

فاذا تصدى لـي بلاسع بـرده … أصليته منهـا بحـر هجـاء

اضريت ألسنة اللظى في موقدي … ودمغتـه بقصيـدة حمـراء

ورأيت مـن خلف الزجاج سواده … فرميته بزجاجـة الصهبـاء

فانصاع في ثوب الظلام، وفي الضحى … وافـى بتيـه بحلـة بيضـاء

من أين هذا اللون ، كيف نسجته … للارض يا ابن الغيمة السوداء ؟

وخيامك البيضاء ، كيف صنعتها … في عتـم هذي الليلة العمياء ؟!

نفثت يداك لهـا ، فيا لك ساحرا … في الارض شاد قصوره من ماء

كم هيكل للشمس، فيه، على الربى … أبـدى الصقيع مهارة البنـاء

طافت مجامرها بـه ، وتوهجت … أرجـاؤه بمنـائر الانـداء

وسرى لهيب الفجر في جدرانه … وعلا دخان المـاء فـي الاجواء

نظرت اليه الشمس باسمة لـه … فهـوى لباسم ثغرهـا اللألاء

وتساقطت أصنامـه وشموعـه … صرعى لطلعـة نورها الغـراء

وانحل مـا عقد الصقيع وغيبت … أشباح تلـك الظلمة الشهبـاء

خدعت بها رحبها العيون ، وكلها … ذابت وغابت تحـت عين ذكـاء

سبحان رب الشمس باعث هديه … فيهـا ومرسل نـوره الوضاء

الشمس مدفأة الوجود ، فقم لها … وأنعـم مع الاحياء بالادفـاء

الشيخة الشمطاء مـل حديثها … فأجلس أمام الغـادة الشقراء

أبـدا تعيد ويستطاب معادهـا … ولقـد يمـل مكرر الانبـاء

ولها حديث كـل صبح تبتدي … فيـه ، وتختمه بكـل مساء !!

فارس سعد



الدكتور عبد السلام العجيلي

قصة أيام وشعر وحب

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

***

الف الناس ان يتقبلوا من الكاتب او الشاعر او الفنان اثره وانتاجه يقرأونهما او يتمتعـــون بهما مستقلين عن شخصية ذلك الكاتب او الشاعر او الفنان ، كأنما الاثر الفني او الانتاج الادبي ثمرة منفصلة عن شجرة . فالناس في هذه الحال كآكل التفاحة ، لا يدخل في تقديره لطعم ما يأكل جهله او معرفته بالشجرة التي اعطته التفاحة التي في يده ، لا مكانها ولا عمرها ولا مبلغها من العلو او حجمها بين الشجر . وهذه الطريقة من تقبل الاثر الفني هي التي تسمح بها الظروف للقارىء العادي او المتتبع العادي بما ينتجه الفنانون ، في اغلب الاحوال . ولـو اتيح لهذين ان يقرآ او يريا كل رائعـــة فنية في ضوء شخصية الفنان او الاديب لاخذ تمتعهما بما يقرآن او بما يتذوقان ابعادا جديدة غير الابعاد التي يأخذها بطريقة الثمرة المنفصلة عن الشجرة .

ولا نكران في ان بين الآثار الادبية والفنية آثـارا متكاملة، مغلقة على نفسها، تكاد ان لا تتأثر بماهية مبدعها، او ان زيادة المعرفة بهذا المبدع لا تزيد في قيمتها او تنقص من هذه القيمة الا القليل . فان معرفتنا بحياة زهير بن ابي سلمى مثلا لا تغير كثيرا نظرتنا الى معلقته او تزيد في اعجابنا بأبياته الوصفيـــة او الحكمية او تنقصه . ومن الزاوية نفسها نجد ان منزلة آثار شكسبير المسرحية وقيمتها في التراث الادبي العالمي لم تتأثر بكل ما دار حول شخصية كاتب هذه الآثار من روايات او ظنون . فسواء كان مبدع تلك المسرحيات ممثلا بسيطا من سكان ستراتفورد ان آفون او كان لوردا عريقا في النبل عالي الكعب في الادب والفلسفة فان المتعة التي يجنيها القارىء او المشاهد من تلك المسرحيات لا تتغير . في حين ان قراءة نتاج ابي العلاء في لزومياته او رسائله، وقراءة دستويفسكي في رواياته ، والتمتع بمشاهدة لوحات فان غوخ ، كلها تتأثر تأثـرا كبيرا بمعرفتنا لشخصيات ابي العلاء ودستويفسكي وفان غوخ ، وباطلاعنا على سيرهم الشخصية واحداث حيواتهم .

هذه الفكرة التي اوردها كثيرا ما تجول في خاطري وانا اقرأ بعض النتاج الادبي ، ولا سيما في الشعر ، لادباء معاصرين اعرف من امورهم او من اشخاصهم اكثر مما يعرف غيري من قرائهم ، فأجدني محظوظا بمتعة لم تتح لغيري ، سببها المعرفـة التـي ذكرت . وقـد عادت الى بالـي بصورة خاصة وانا اقـرأ اثـرا لـم يطبع بعد ، او انه لم ينشر بعد كاملا (١) ، عنوانه «قصة ايام» . ففي قراءة هذا الاثر الذي تستطيع ان تسميه ديوانا شعريا ، رغم تخلل النثر له بصفحات كثيرة ، او تسميه ملحمة عاطفية او تأملات فلسفية لشاعر جمع بين عمق التفكير وسعة الثقافة ورهافة الحس ، متعة لكل قارىء . الا ان هذه المتعة نفسها تأخذ نكهة خاصة او تكسب ابعادا جديدة عند من يعرف كاتب قصة ايام هذه ، الدكتور علي الناصر . ولست اشترط بالمعرفة هنا المعرفة الشخصية بالمخالطة والصداقة ، ولكني اعني معرفة هذا الطبيب الشاعر المفكر في تاريخه الادبي ومنهج تفكيره واسلوب عيشه . ففي ضوء هـذه المعرفة تبدو لنا المقطوعات التي منها تتألف قصة ايام وكأنها نتاج ادبي فريد في موضوعه وفي قيمته وفي اصالته الحقيقية في زمن نبحث فيه عن الاصالة فلا نقع الا على التقليـد او العبـث .

وربما كان قارئو شعر الدكتور علي الناصر قليلين في هذه الايام ، وكان عارفوه المعرفة الادبية اقـل . واقول في هذه الايام ، لأن اياما غبرت كانت حلب فيها ، وحلب هي مدينة الدكتور علي الناصر ، تشع نشاطا ادبيا وتستقطب اهتماما ادبيا اكبر بكثير مما تشع وتستقطب اليوم ، كان الدكتور علي الناصر فيها احـد العناصر البارزة في ذلك النشاط وذلك الاهتمام . تلك الايام كانت منذ بضعة عقود من السنـين ، في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن (٢) . وقد لا يبدو غريبا ان يبعد ما بين امثال علي الناصر ، ممن نستطيع ان نقول عنهم انهم الرعيل الاول في الادب ، وبين قراء هذا الجيل وكتابه اذا حسبنـا البعـد بفواصل الزمن . الا ان الغرابـة هي فـي ان يبعـد قـراء هـذا الجيـل

عن علي الناصر نفسه ، للسمات العصرية التي يحملها ادبه ، سمات العصر الذي نعيش فيه ، على الرغم من ان الشاعر نفسه ، وهو في عمره حول السبعين ، في سن لا يقاربه فيه كثير من قراء هذا الجيل وكتابه .

ان الذي يتاح له ان يقرأ علي الناصر في ما نظمه في الاعوام الاخيرة يعجب كيف يبقى عصريا الى يومنا هذا شاعر بدأ الكتابة والنظم قبل نصف قرن من الزمن ، وان يكون في نفس الوقت صادقا في تعبيره وفي اصالته. واقصد بالعصرية هنا صفات في النتاج الادبي يتصف بها نتاج الشعراء المحدثين ، من صادقين ومقلدين ، حين يحتل الرمز في ما ينظمون محلا بارزا ، وحين تكثر الاقتباسات الاسطورية والايماءات الموحية بأن الناظم يمتح من منبع ثقافة واسعة وعميقة ، وحين تسخر الكلمة لحمل المعنى اكثر من سوق المعنى ليتلاءم مع الكلمة التي كانت السد غير المنازع في الشعر القديم . غير ان هذه العصرية في صفات الشعر لم تقتصر على نتاج علي الناصر الشعري في اعوامه الاخيرة ، بل هي موجودة كذلك في ما نظمه قبل عشرين عاما وثلاثين عاما . وكل ما في الامر ان شاعرنا اصبح عصريا اليوم لانه سبق عصر اليوم بخمسين عاما . فمنذ البدء كان لعلي الناصر هذا النهج الشعري الغارف من معين ثقافة ناضجة ، الملون بلون تفكير فلسفي عميق ، الناظر الى الكلمة في القصيدة نظرات مختلفة عن نظرات جيله الاول . وكان ذلك النهج شاذا في ذلك الزمن . واحتاج شعراؤنا الحديثون الى نصف قرن من الزمن ، والى ان يكتشفوا ت. س. اليوت وطريقته في الرمز والاسطورة والاحالة الى مصادر الثقافة المختلفة ، ليصبح هذا النهج مقبولا وسائدا .

الا ان عصرية الدكتور علي الناصر فيما ينظمه اليوم وما نظمه قبل تخفي دونها كلاسيكية تشبه كلاسيكية الاكاديميين القدامى . واولى خصائص هذه الكلاسيكية ثقافة الشاعر المبنية على اساس علمي هو اساس دراسته الطبية ، والمستمدة من اطلاع واسع في لغات متعددة هي ، غير العربية ، الانكليزية والفرنسية والتركية والفارسية . ثم تعلق بالمعرفة وادمان على زيادة الحصيلة منها ، في كل جانب من جوانبها ، يكادان ان يكونا عجيبين في انسان يعيش في مجتمع غلبت عليه العجلة والسطحية . وكثيرا ما يلقى الدكتور علي الناصر زواره من الاصدقاء بصرخة اعجاب بكتاب كان يقرأه ، وبحديث مطنب عن روعة ذلك الكتاب وما فيه . قد يكون الكتاب ديوانا لشعراء البكتاشية او طبعة جديدة من مرجع في الفيزيولوجيا او مؤلفا في الامراض الجلدية ، ولكن علي الناصر لا بد ان يكون قرأه من الجلدة الى الجلدة ، متعمقا ممحصا ومقارنا ، ثم يروح هاتفا بكل من يلقاه هتاف لافونتين حين قرأ بعض اسفار العهد القديم لاول مرة واخذ بروعة ما قرأ فراح يسأل من يلقى في طريقه : قل لي ، هل قرأت باروخ ؟!

وهكذا نجد ان واحدة من الصفات المميزة للدكتور علي الناصر ، وهي صفة المثقف المتبحر ، مثلما دخلت اساسا في انتاجه الشعري دخلت اساسا في سلوكه في الحياة وبالتالي في تكوين شخصيته الانسانية . ومن هذه الناحية اعود الى ما بدأت به كلامي الى تأثير المعرفة بشخصية الكاتب او الشاعر او الفنان في تقدير قيمة ما يكتب واحدهم او ما ينظم او ما يبدع . فحين يتصور القارىء شاعرا هو طبيب متقدم في السن ، منطويا على نفسه ، غارقا بين مصادر المعرفة والعلم قديمها وحديثها، قادرا على ان ينصرف بكليته الى تعلم لغة جديدة استهوته آثار واحد من شعرائها ، متراوحا في سلوكه بين النقمة على البشر لتفاهة نفوسهم وبين الرثاء لهم لوقوعهم فرائس بائسة في يد الاقدار ، زاجرا مرضاه الى درجة التنفير مع حاجتهم اليه وحاجته اليهم لانهم يثيرون اشمئزازه لا بعاهاتهم الجسدية بل بنقائصهم العقلية والنفسية ... اقول حين يتصور القارىء كل هذا وهو يقرأ الدكتور علي الناصر فان تمتعه بما يقرأ يأخذ صورا جديدة غير التي يأخذها في قراءته له دون معرفة . فكيف اذا كان ما يقرأ هو قصة حب لهذا الشاعر الذي يرفع اعوامه السبعين كراية امام من ينظم الاشعار في حبها والتي لا بد من ان تكون في الذروة من الجمال والميعة من الصبا كما تصفها مقطوعات « قصة ايام » ؟ ....

قصة ايام هذه التي اتكلم عنها قصة واقعة احداثها بين يومين معينين يذكرهما الدكتور علي الناصر بوضوح، هما ٣٠ – ٧ – ١٩٦١ و ٤ – ٩ – ١٩٦٦ . بين هذين اليومين كتب الشاعر مائة وسبعة وثلاثين مقطوعة شعرية ، بعضها من الشعر المنثور ، تسجل ، كلا في يومها ، الخواطر التي اهاجها حب الشاعر الغريب ، بوصله وهجره ، ونعيمه وشقائه ، وتفكيره وعبثه . وفي خواطر هذه القصة التي تقوم مقام الاحداث في القصص العادية تجد علي الناصر بكل صفاته الفكرية وخصائصه الادبية : بعلمه وتمثله للثقافات المختلفة ، بتمرده الفكري ورقة حسه الانساني ، بمذهبه في الشعر ، وحتى بعيوبه النظمية التي ترتبط بهذا المذهب . وثمة مقطوعتان من هذه المقطوعات المائة والسبع والثلاثين ، هما الاولى والاخيرة احاطتا ببقية الديوان وتضمنتا ، بصورة عفوية لم يتقصدها الشاعر ، اللازمة الفكرية والشعورية لكل مقاطع قصة ايام ، او انهما احتوتا النواة العميقة للثمرة الشعرية التي هي هذه القصة . اولى هاتين المقطوعتين ، وهي فاتحة الديوان ، تقول :

رفرف القلب حين مراك طفلا ... وهفا عبر جنة الاحلام
بلبل لم يمته طول ليال ... داكنات في مأتم الايام
انقذيني فانني اسمع الدو ... د يغني في باليات عظامي

والمقطوعة الثانية هي مقطوعة النهاية التي تقول :

تطل لتشجي النفس بعد هدوئها   امور تقضت تستثير ولا تجدي
فلم تخمد الايام مشبوب نارهـا   وتذكو ضراما حين‌اهذى بها وحدى
ضلالة وهـم غادرتهـا لشؤمها   فلم يبق غيـر حشرجة الوجـد
فيا ليت انـي في الحياة فراشه   لاحفر في صدر التي ذهبت لحدي

ففي هاتين المقطوعتين تبدو فكرة الموت مقرونة بعاطفة الحب . وهذا القران يتردد في كثير من مقطوعات قصة ايام ، الا انه في مقطوعة البدء والختام يبدو واضحـا ومكثفا . فكأن الشاعر ، في البدء ، يريد ان يلتمس في الحب مفزعا له من الموت ، حتى اذا اكتشف على طول المدى ان ليس من ذلك الموت مفر تمنى ان يكون كفراشة تتقبل الموت بما يشبه الرضى لان لحدها سيكون صدر حبيبها . ولا شك في ان تعبير الشاعر عن فزعه مـن الموت بهذه الصورة الفريدة ، صورة غناء الدود في باليات العظام ، وتعبيره عن الاستسلام الى الموت بصورة‌الفراشة الملحدة في صدر من تحب ، هما تعبيران بديعان فـي الجمع بين التصور العلمي والتصوير الشعري لافكار ومعان تكاد تكون مبتذلة لكثرة ما تناولها الشعراء والكتاب والفلاسفة .

ولا يعني هذا ان مقاطع قصـة ايام المائة والسبع والثلاثين دائرة كلها حول فكرة الموت في الحديث عـن الحب ، فان للحب لذائذه وهناءاته التي يغنيها الشاعر في مقاطع متفرقة ، كقوله في مقطوعـة مؤرخـة في ٢ ــ ٣ ــ ٦٢ :

كقطرة الطل او عرف تبوح به   ازاهـر او حنان الام في ولـه
صفت وفاضت على‌الدنيا كحلم هنا   روحي والهها يا منيتـي ولهـي
اسير والنفس تمشي بـي معانقة   كل الخلائق في سام ومـن تفه
هذا التجلي تجلي الله افقدنـي   جسمي الترابي فاستيقظت من‌عمهي

الا ان مقطوعات السعادة قليلة في قصة ايام ، لا لقصر اللحظات السعيدة في هذه القصة ، ولكن لان ذا العقل كما قال المتنبي يشقى في النعيم بعقله ، فيـروح يفلسف سعادته بالتفكير الجاف او انه يبحث عن حـر السعير في نعيم الفردوس . من هذا قول علي الناصر في المقطوعة المؤرخة في ٢٠ ــ ٦ ــ ٦٢ :

اتهجى اوصافها فـي سكونـي   كصفير اما تهجـى الكلامـا
صفة ترقص الفؤاد واخـرى   تفعم النفس غبطة وسلامـا
ثم اخرى تضلني بسناهـا   فترى العين ما تـرى اوهامـا
ثم اخـرى كجمـرة تتلظـى   فـي كياني فاستشيط هيامـا
اتهجى اوصافها فـي سكونـي   والتهجـي يزيد شوقـي ضراما

وقوله في ١٥ ــ ١٠ ــ ٦٢ :

انني تعب ، ففي طوال هذه السنين التي عشتها لم تظهر لي لا شيئيتي بهذا الوضوح .

كم دقت هذه الكلمة بقوة والحاح باب غروري ، ولكنها لم تستطع النفوذ الى محرم السر . والان بهمسة منك انهار كل شيء .

ان اجنحة‌اكاروس اشد قوةومنعة من‌اجنحتي. فيا ليت لي القليل من سيزيف لاستطيع دحرجة الحياة الى نهايتهـا .

لماذا انحنى ظهري وتقوس بلحظة ؟

لماذا فقدت ذاتي وكنت اعتقد بأن الله حل فـي خلدي . . . ؟

وفي مقطوعة اخرى مؤرخة بالساعة الثالثة بعـد منتصف الليل في ٢١ ــ ٢ ــ ٦٣ نجد الشاعر يقوم في تلك الساعة المتأخرة بمحاولة فكرية لتحطيم سعادته ، حين لم يكن الواقع قد حطمها بعد ، وذلك بقوله :

الححت بالتسآل فاستنطقت   مكنونها فـي آهـة واكتئـاب
اسعى الى نزعك مـن خافقـي   اسعى... اما يكفي حياتي‌اضطراب
عمياء آمالي : انـا فـي الهوى   اعيش في دوامة مـن عـذاب
معبودتـي ! اني خلـود الشقـا   ولادتي الجرم وعيشي العقـاب

وهكذا تمضي المقطوعات المائة والسبـع والثلاثون تروي في غضون خمسة اعوام قصة حـب غريبة ليس باحداثها ، فالاحداث فيها غمامـات لا تكاد تعرف او تميز ، بل بافكارها التي تؤرخها الايام التي كتبت فيها . وهذه الايام نفسها ، او بالاحرى تواريخ تلك الايام ، تكون عناصر في القصة يمكن بمراجعتها والمقارنة فيما بينهـا معرفة التباين في المد والجزر ، والهدوء والاندفاع ، في نفس هذا الشاعر المفكر او هذا المفكر ثم الشاعر . ذلك ان الشعر في قصة ايام يبدو تابعا للفكرة التي يؤديها الكلام المنظوم ، مثلما يبدو الحب نفسه وسيلة ، وان تكن وسيلة غير مقصودة ، يتسلل بها الشاعر الى اعماق نفسه ليكتشف اغوارها ثم ليعود منها بافكار جديدة او صور جديدة او تعابير جديدة . فقصة ايام هي افكـار احتوتها مقاطع شعرية اكثر منها مقاطع شعرية احتوت افكارا . وهذا طابع ثابت لشعر الدكتـور علي الناصر وواحدة من خصائص مذهبه الشعري الذي اشرت اليه في ما سبق من كلامي .

والى هذه الخاصة تعود هذه القساوة وذلك الجفاف في اسلوب الدكتور علي الناصر الشعري على رقة‌احاسيسه ولطف معانيه . وبالرغم من معرفته ان هذه الناحية تعد مأخذا على شعره ، فانه لثقته بنفسه واعتداده بها يجد المأخذ لا في ما ينظم بل في من يقرا ولا يحسن التذوق فيقيس الجمال الشعري بمقاييس لا يعتد بها علي الناصر. فعلي الناصر يؤمن بالفكرة المركزة ، وهو يكره الكلمة او البيت او المقطوعة التي تقال نافلة دون ان تحمل فكرة او معنى او ايحاء . بعض مقطوعات قصة ايام تتألف مـن بيت واحد وحسب . فهو كهاوي الحجارة الكريمة الخبير بها يعجب بالجوهرة لقيمتها ولا يهمه ، بل هو يفضل ان

(١) نشرت بعض مقاطع من قصة « ايام » في اعداد مختلفة من مجلة الاديب ، وفي مجلات ادبية اخرى . (٢) ما بـين عامي ١٩٢٨ و ١٩٦١ نشر الدكتورعلي الناصر الدواوين التالية ، شعرا ونثرا : قصة قلب ، الظمأ ، البلدة المسحورة ، سربال (بالاشتراك مع اورخان ميسر) ، دن الدموع ، هذا انا .

جـراح

●

تقطعت الاسباب بيني وبينها   ومر زمان دونها .. متطاول
وكنت أرجي أن تكون حليلتي   فأعيت على مثلي وأفلح جاهل
تخيره أهل لها جل همهم   حلي ومخزون من المال طائل
وعندي لها لو يعلمون ذخائر   من الحب لا تشقى لديها الحلائل
وكنز حنان لا يقوم مثله   بمال ولا تخشى عليه الغوائل
وأمس على متن الطريق لقيتها   كعهدي بها من قبل والحسن هائل
فخلت شريطا كر بيني وبينها   عليه من الماضي رسوم مواثل
ليالي أصفيها الوداد وتشتهي   لقائي وتحدوني اليها الاصائل
وكان يماشيها غلام بوجهه   ملامح منها جمة ومخايل
فرفت عليه النفس وجدا كأنما   له ذمة عندي وعهد ونائل
فلما رأتني لم تبح نظراتها   بشيء كأن البعد للحب قاتل
سوى بسمة مرت سريعا بثغرها   كبرق جلا الظلماء والليل حافل
فثار لها في الصدر ميت تصرمت   عليه من الاعوام عشر كوامل
فما باله قد عاد حيا ورده   الى الجهل خبل من سمية خابل
يخرش اضلاعي بأظفار كفه   ويطلب أنسا ما له ويحاول
قرارك يا مغرور وارجع الى البلى   فما في حياة بعد موتك طائل

ولما نأت عني وغيب شخصها   زحام شديد اثقلتني البلابل
وغالبت دمعي ان يسيل وانني   لاعلم ان الدمع لا بد سائل

حلب

عمر ابو قوس

تكون في حوزته مفردة . اما عامة الناس فيلذ لها وتفضل ان تكون الجوهرة في قطعة حلي كعقد وسوار ، ولو شاركها فيه معدن رخيص او حجر هو دون الجوهرة قيمة .

ولعل انطوائية الدكتور علي الناصر على نفسه وانصرافه الى التعمق في دخائلها اثر رئيسي في هذه النظرة التي يتخذها والمنهج الذي يتبعه في تقييم الشعر ونظمه . ولعل اصراره عليهما هو نتيجة طبعه المتحدي لما تواضع عليه اهل الادب وتمرده على التقاليد التي يستسخفها في الشعر مثل استخفافه لها في الحياة الاجتماعية . فاذا فات من لا يعرف الدكتور علي الناصر المعرفة الادبية ، ما وراء الجفاف المتمثل في التركيز في التفكير والتكثيف في المعنى في شعره ، فان من يعرفه لا يفوته ذلك وربما وجد في ما ظنه الاول مأخذا امرا جديرا بالتقدير والاعجاب . ذلك ان المعرفة بشخصية الكاتب او الشاعر تري القارىء انتاج الكاتب او الشاعر في نور جديد وتمتعه به تمتعا جديدا ، كما قلت في مطلع المقال . ليس ذلك في كل حالات الانتاج الادبي بلا شك .الا انه امر صحيح في حالات كتاب وشعراء كثيرين سميت منهم بين القدماء طرفة وابا العلاء المعري ودستويفسكي . وهو كذلك صحيح في حالة شاعر مثل علي الناصر ، وصحيح بصورة خاصة في حالة قراءة اخر ما انتجه هذا الشاعر ، وهو ديوان قصة ايام .

الرقة ـ سورية

عبد السلام العجيلي

قصة

أبو محمود الصياد

بقلم عبد الرحمن عمار

ليلة غولية رصيدها جليد قاس يتمدد على الارض ببلادة فيصيبها بالاغماء والدوار ويفقدها الشعور والحركة ، وغيم يتكدس بعضه فوق البعض الاخر كبيادر العدس ، انها ليلة تخيف الرجل الذي يملك جسدا من حديد وقوة مقطوفة من الجبال ، الصقيع اللئيم ما ان يلامس الماء ويلثمه بخبث ودهاء حتى يحيله الى قطعة من جليد ، والحصى المبذور فوق التراب القرميدي يأبى ان يتحرك ولو بضربة مطرقة كأنه مشدود اليه بعقد متينة ، والسائر فوق الارض لا يشعر بها الا قطعة واحدة من الصخر .

في هذه الليلة تسلل ابو محمود من بيته عند منتصف الليل متدثرا بعباءته المرقعة غير مبال بأعدائه الاشداء البرد والظلام والوحوش ، انها الحاجة .. حاجته للسعي وراء الرزق اقوى من الخوف بل اقوى من الحياة ، ما ارخص الحياة امام العاطفة الابوية وامام واجبات الرجل المقدسة تجاه بيته الذي اساسه ساعداه ، وسقفه وجدرانه ، ايمانه وعزيمته .

في عشاء تلك الليلة – قبل ان يتسلل ابو محمود خارج البيت – كان يجلس مع امرأته واولاده كسلسلة صدئة حول الموقد التماسا للدفء على نار (الجلة) لكن باب الغرفة ذا الشقوق الواسعة يدخل البرد منه كأنه السياط تجلد ظهورهم ، الاولاد ، واكبرهم في سن العاشرة يقضمون بنهم بضع كسيرات من الخبز اليابس اما اصغرهم الرضيع فقد كان متمسكا بثدي امه وفمه الصغير يعصر الحلمة بقوة استعان بها من وحش الجوع .. واين الحليب !!؟ . الاب والام ينظران اليهم وهم في هذه الحالة ، بلوعة واسى وفي جمود نظرت ام محمود الى زوجها بعين يغمرها الذبول وقالت له بصوت هادىء وكأنها تتكلم مع نفسها .

– ان كمية الطحين التي كانت عندنا قد انتهت البارحة ، يا لجيراننا الطيبين انهم لم ينسونا في ايام قاسية كهذه فهم احيانا يبعثون اولادهم وهم يحملون لنا الصحون المليئة بالطعام الشهي ولكن الى متى تستمر هذه الحالة .. ؟ .. ايه ..

– بسيطة يا ام محمود . ان الذي خلقنا كفيل بنا ، الله كريم سيفرجها علينا . ثم حضن ابنته فاطمة التي لا يتعدى عمرها الثلاث سنوات ودموع الحرمان تتلألأ في عينيه .

نظرات اولاده الجائعة تتوجه الى قلبه كالسهام ، انه يحس بشرايينه تتمزق عندما ينظر اليهم فيرى الجوع حروفا محفورة تظهر بوضوح على وجوههم وهو يستطيع ان يقرأها بسهولة ، هو لا يهمه اذا جاع او عرى ولكن الاولاد .. الاولاد كيف يستطيعون ان يصبروا ، آه لعنة الله على .. على اللاشيء . تبا للشتاء ما اقساه انه يقطع رزق الانسان بمطره وثلجه وبرده .

بعد فترة صمت كأنها الجبل الذي يتقلقل فوق قلبه يضيق من شروده على صوت ابنه محمود قائلا بذلة وانكسار :

– ابي ، اليوم طردنا الاستاذ من المدرسة انا واخي لاننا لا نلبس صدريات مدرسية كبقية التلاميذ .

وقاسمه اخوه الصغير الحديث فقال بسخرية .

– هكذا النظام ، على جميع الطلاب ان يلبسوا زيا واحدا .

– ولكن لم نكن وحدنا ، هناك رفاق لنا طردوا ايضا لهذا السبب .

– ان لم تجلب لنا صدريات يا بابا فلن نتعلم ابدا .

مع هذا الحوار الحزين ، الاب والام ينظران اليهما بصمت وحسرة والطفلان يتابعان ببراءة وبساطة .

– اظن ان قلب استاذنا من حجر الصوان ، تأمل يا ابي انه يطلب منا ايضا (تعاونا مدرسيا) ليرتين مني وليرتين من اخي .

– بابا ارجوك ، نحب ان نتعلم كباقي اولاد قريتنا ولا نريد ان يطردنا الاستاذ من المدرسة .

ابتسم الاب في ذاته ابتسامة مرة مزقت احشاءه ثم تمتم بصوت غير مسموع .

– يا للسخافة ، ليرتان + ليرتان = اربع ليرات ، من اين احصل عليها ، اني عاجز الان عن الحصول على اربع حبات من القمح فكيف ، يا لطيف اربع ليرات ..؟ انا الذي امتهن مهنة صيد السمك ان لم اذهب الى نهر العاصي كل يوم وامضي معظم وقتي اصارع الزمن والطبيعة حتى احصل على رطل او رطلين من السمك ، هذا اذا وفقني الله ، ثم ابيعها واشتري بثمنها ما احتاج له ولاولادي وزوجتي ، ان لم افعل ذلك فكيف احصل على ما اريد .. كيف احصل على الليرات الاربع المفروضة على ولدي في المدرسة وها انذا قد صار لي نصف شهر لم اخرج من البيت بسبب الاعصار والثلج والمطر وكل ما عندنا من مؤونة قد نفذ .

ثمة فكرة خطرت بباله ربما تنقذه من الازمة التي يتخبط بها .

لماذا لا يذهب الى نهر العاصي في هذه الليلة فربما يبتسم لـه الحظ ويصطاد كمية من السمـك تعيـد ولديه الى المدرسـة وترد عنهم اخطبوط الجوع ؟. اجل في هذه الليلة .؟ وما في ذلك ، أليس من المعروف عن ابي محمود ان عزيمته لا تعرف اليأس وقوته من الفولاذ لا تقهر ، فهو لم يزل يذكـر ذلك الوحش الذي صرعـه منذ بضع سنوات عندما هاجمه في البرية في ليلة كهذه مظلمة وباردة ، لكم كان الوحش غبيا حيث لم يعرف ان ابا محمود سيمزق بطنه بسكينه التي تبقى دائما في جيبه ، ويومها اصبح ابو محمود والوحش حديث القرية وخاصة في منزول المختار.

— يا جماعـة ابو محمود قتل الضبع جثته خارج القرية .

— كيف استطاع ان يقتله .. ؟

— يقولون انه تذكر امرأتـه وأولاده في تلك اللحظـة فقويت عزيمته وتغلب على الضبع .

— المهم انه قتله وهو الان فـي بيته كالاسد .

ما ان مرت هذه الحادثة بفكره حتى صمم ان يسعى ، والارادة القوية تأتي بالمعجزات ، لكنه انتظر ريثما تنام زوجته فهو لا يريدهـا ان تعرف انه ذاهب الى العاصي فـي هذه الساعة حتى لا تثنيه عن عزمه بعاطفتها الحزينة فهو يعرفها جيدا فقد تفضل المـوت جوعا على ان يخاطر بحياته من اجلهم .

وتمتطي قدم ابي محمود الطريق المتوجهة غربا الى النهر بعـد ان تسلل من داره بصمت واطمأن على ان زوجته لم تشعر به عندمـا خرج ، شبكة الصيد تتدلى من فوق كتفه بعدما امسـك طرفها بيده اليمنى ، وذاب في الظلام وهو يتقرى طريقه بتأن وهدوء وقدمه تخبط الارض بشكل عشوائي لوعورة الدرب المملـوءة بالتلال الصغيرة والحفر والاحجار . شيئا فشيئا بدأ احساسه بالبرد يزداد فيجلد بدنه الخشن ، لا شيء هادىء في البرية فعواء الذئاب وعويل ابن آوى تتغلغل في سمعه ، زئير الريح تهز جسده بلا رأفة ولكن .. لا يهمه ذلك فهو لم يحاول سماع العواء ، اصم عنه اذنيه ، انه يفكر فقـط بالوصول الى هدفه الى النهر فـ.. فربما ..

شفتاه لا تنقطعان عن تمتمـات غامضة .. ولم يعد يحس بما حوله احساسا طبيعيا فشعوره كأنه بين اليقظة والحلم ، وفجـأة تحضنـه الارض مطروحا بلا وعي يلثم الوحل القاسي بقسمات وجهه المتقلصة ، نهض بعدها متثاقلا يتحامل علـى نفسه بصعوبة ، شفتاه تصطدمان ببعضهما بشكل آلـي وهـو يتمتم بكلمات فوضوية بعدمـا عرف ان حجرا ملقى على الطريق قد سبب له هذه النكسة الجسدية .

— أ .. خ اهـذه انـت ايهـا الخبيث آه لـو املك مطرقة لكنت فتتك تفتيتا وعلمتك كيف تعتـدي على الناس ، كم اكون سعيـدا لو انزع احشاءك ولكـن مهـلا ستنال عقابك .

وحمله بين يديه بعـد ان قلقله وفك رباطه الجليـدي من الارض ورمى به بعيدا عن الطريق .

— هه ، حتى لا تعتدي على احد مرة اخرى لعنة الله عليك .

وتابع طريقه بعد ان تأبط شبكته وهو يتحسس خيوطهـا بأصابعه ليتأكد من وجودها معه .

كان خرير نهر العاصي ليـلا يبعث بالنفس الوحشة والاضطراب وبخاصة عندما يكون الانسان وحيدا في ليلة كهذه ، انه خريـر اشبه بفحيح افعى كبيرة عند ظهـر يوم صيفي حار وفي لحظة صمت توقف ابو محمود عند ضفة النهر ونظـر اليه من اعماقه وفكر :

الان جئتك ايها النهر فلا تكـن بخيلا وانت الان اعلم المخلوقات بي.

ثم وضع شبكتـه فـوق الحشيش الهرم وجلس عليها القرفصاء حتى كادت ركبتاه تغوصان في بطنه من شدة احساسه بالصقيع ، واخرج من جيبه علبة سجائره النحاسيـة ولف منها سيكارة بصعوبة فلقـد كانت اصابع يديه ترتجف من شدة البرد ، حتى احس ان الدم الذي يسري فيها قد توقف عن الحركة ، لقد علمته التجارب ان الانسـان عندما يشعر بالبرد ما عليه الا ان يقوم بالعمل .. اي عمل فانه يكسب من ذلك نشاطا وقليلا من الدفء ، لذلك ما ان انتهى من تدخين سيكارته حتى نهض وحمـل شبكته وسار بمحاذاة الشاطىء الى ان وصل الى المكان الذي يظن ان السمك يجتمع فيه بكثرة ، ثم فرش الشبكة على الارض وربط حبلها الرفيع بأسنانه وامسكها بيده بتأن ورمى بهـا على سطح المـاء فأحدثت صوتا يشبه قرقرة النرجيلة ورست الشبكة في الماء وهو يعض على حبلها بأسنانه، ويداه تمسكان طرفيها بقوة . وتمر اللحظات بطيئة كأنها جبل من عمر الزمن ، « يا رب حسنة الاولاد » ، اللحظات بطيئة ، انها الحد الفاصل بين الجوع والشبع ، بين المدرسة والشارع ، بين العلم والجهل . « حسنـة الاولاد يا رب » .. آه احس بالشبكة تهتـز ، هناك قوة تجتذبها الى اسفل لا بد ان سمكة كبيرة تحاول الافلات بعـد ان سربلتها خيوط الشبكة ، اتريديـن الهرب !! هه . هه . هه ، حلمك بعيد ايتها السمكـة لا بد وانك تساوين ثوبين مدرسيين ووجبة طعام شهي ، بل وجبات و .. » ، واستمر في ثرثرته وتأملاتـه وادرك وهـو يسحب الشبكة بوجل كأنه يسحبها بروحه وقلبه لا بيديه المرتعشتين ، ان ثمة طرفا من صخرة قد علقت به خيوط الشبكة فها هو يحـاول مستعينا بالدعوات كي ينتشلها من الماء فيهزها بهـدوء ثم يسحـب ،

الربيع

فاض الجمال على سناك سطوعا ... لما حملت من الجمال ربيعا
أهواك ..ام اهوى الربيع وحسنه ... فكلاكما سحر العيون جميعا
هو انت .. او انت التي علمته ... ان يستحيل زنابقا وشموعا
أأعيش ظمأن الخواطر والمنى ... وأنا ارى في حضنك الينبوعا
شعري اطارك فارسمي في لوحة ... صورا .. ترف على الاطار وقوعا
الورد ، والزهر المجنح والشذا ... هيمان .. مد جناحه ليضوعا
ما كنت الا كالفراشة رفرفت ... وحنت على الزهر النضيد ركوعا
سكرى تعب من العبير رحيقها ... وتخاف يسبقها العبير ذيوعا
سبحان من..صنع الربيع مسارحا ... والحسن.. مؤتلقا .. بها مطبوعا
اني مددت الى سناك ضراعتي ... وبعثت اشواقي اليك شفيعا
واذا دعا القلب الجمال وسربه ... لباه ، يزحف في الضلوع مطيعا
هبني اضعت العمر في تبجيله ... ما كان عمر في الهوى ليضيعا

جدة ـ السعودية — **محمد علي قدس**

تتوجه يداه بطرفها شمالا .. جنوبا ثم يسحب ولكن عبثا يفعل .

خيبة امل صفقته ومصيبة مفجعة نشرت شرايينه بمنشار اخرس ، ماذا يفعل ، هل يترك الشبكة راس ماله في هذه الحياة ويعود الى القرية وفي نفسه الحسرة المرة والحقيقة المؤلمة .؟ لو حدث ذلك له في غير هذه الليلة لكان الامر هينا ، غطسة بسيطة ويعود الحق الى اهله . اما في هذه الليلة الفولية فالامر يحتاج الى حزمة تفكير ، صوت متزن ينطلق من اعماق فؤاده : لا تدع اليأس يسيطر على اعصابك كن رجلا .. كن رجلا وفكر جيدا .

بحذر متناه ورعشة نفس خائفة يقترب ابو محمود من النهر ويلمس الماء بيده ، « حو .. ح انه بارد جنون ان افكر بهذا الامر .. ان اقدم عليه ولكن هل ادع راس مالي يضيع .؟ لا ، شبكتي ستعود سأضمها الى صدري اتفهم ايها النهر » . وبدأ يسلخ اعواما من عمره وهو يعري جسده من الثياب بعد ان ربط حبل الشبكة بجذع شجرة صفصاف ثكلى باوراقها .

يا للهول انه يهم بالغطس في الماء ، الريح تنفخ بأبواقها الجليدية فتنطلق منها الحان الموت تجبر المسكين على ان يرقص رقصات جنائزية فأسنانه المتصارعة كمطارق تطرق بعضها ويداه اللتان تعلوان وتهبطان كجناحي طير في الفضاء وجسده المرتعش كذيك فقد الوعي ساعة ذبحه ، كلها ترقص .. ترتجف ، تجعله فقير الحس والشعور متجها بكيانه من اعمق اعماقه الى انقاذ الشبكة من الاسر ، وينطلق صوته المرتجف .

ـ يا .. الل .. ـه .

قرقرة الماء تنبعث من اعماق النهر وفقاعات كثيرة تكونت بشكل دائري . ترى هل جن ابو محمود حتى اقدم على ذلك ..؟

لحظات من عمر الزمن تتثاءب كسلا فتدب بملل دبيب نملة تحاول اللحاق بجواد اصيل ، انفاس حادة تنفجر من جوف الطبيعة فتمزق الوقت والزمن ، كل شيء سينتهي عندما تذوب اللحظات خلف الصدى والعدم . نعم كل شيء سينتهي ، فها ابو محمود يرتدي ثيابه الان بعدما انقذ شبكته من الاثر الذي حكم عليها به ورماها على ضفة النهر ماذا يفعل الان ؟. هل يعود الى القرية كما اتى بريء الذمة من صيد اية سمكة ..؟ لكن الامل غذاء النفس الطموحة ، الحياة فراغ بدونه انه يقتل اليأس ويشد من عزيمة الانسان ، والانسان لا يعيش الا على خفقاته ولا يصل الى ما تريده نفسه الا به .. الامل جعل ابا محمود يفعل شيئا .

خيوط الفجر تتسلل من خلال الغيوم العابسة المكفهرة والشمس على وشك النهوض فالشفق الاحمر تبدو ملامحه من الشرق ، البرية مقفرة الا من قلب حنون يخفق بالسعادة والاماني العذبة انه قلب ابي محمود الذي يحمل شبكته الثقيلة على كتفه وصوته ينساب بلحن ريفي جميل طالما ردده بشبابه كثيرا .

ع العين يا بو الزلوف   عيني يا البنية

حمص ـ سورية   **عبد الرحمن عمار**



نقـولا يوسـف

نجيب وأمين الحداد

بقلم نقـولا يوسـف

* * *

١ – الشيخ نجيب الحداد

في ذكرى مولده المئوية ١٨٦٧ – ١٨٩٩

كانا شقيقين شاعرين اديبين – يكبر احدهما الاخر بنحو عامين .. خرجا من لبنان في عهد الظلام ونزلا بالاسكندرية طفلين .. وشغلا الناس والصحف والمسارح في القطرين .. ورحلا عن الدنيا شابين لامعين .. وفي اكوار الزمن ذابت ذكريات الحدادين .!

ولد اكبرهما الكاتب الصحفي ، والشاعر القصصي الشيخ نجيب الحداد ببيروت ، لبنان ، في ٢٥ من فبراير ١٨٦٧ . ونشأ في اسرة من الادباء والاديبات فأبوه سليمان الحداد كان شاعرا وله ديوان سماه : « قلادة العصر » ، وامه ابنة الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٧١) ، واخت الشيخين ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ – ١٩٠٦) وخليل اليازجي (١٨٥٦ – ١٨٨٩) . وخالته ايضا هي الشاعرة وردة اليازجي (١٨٣٨ – ١٩٢٤) .. كما ان شقيقه الاصغر امين الحداد شب معه شاعرا اديبا .. وجميعهم من المشتغلين بالادب العربي واللغة ، وممن تركوا آثارا ادبية منوعة ، واسهموا في الحركة الثقافية بلبنان ومصر ، وعرفتهم الاسكندرية منذ مطالع القرن التاسع عشر ..

وفي عام ١٨٧٣ انتقلت اسرة نجيب الحداد الى الاسكندرية قادمة من لبنان مع مواكب المهاجرين النافرين من طغيان الحكم العثماني .. وكان نجيب يومذاك طفلا في السادسة ، وبدأ يتعلم في مدارس الاسكندرية .. وما كاد يبلغ الرابعة عشرة حتى شبت حوله الثورة العرابية ، مطالبة بالاصلاح والعدالة والحياة النيابية .. وكادت الامور تنتهي بسلام وتحقيق المطالب الشعبية ، لولا تدخل الاسطول الانجليزي الذي ارسلته حكومته الى الاسكندرية ، مبيتة مكيدة الاحتلال ، وضرب المدينة بالقنابل وخرب الكثير من بيوتها يوم ١١ يوليه ١٨٨٢ ، واشعل الحرب مع الجيش الوطني المدافع عن بلاده ، ثم زحف الجنود الانجليز من قناة السويس واحتلوا القاهرة يوم ١٥ من سبتمبر ١٨٨٢ وأرسوا قواعدهم نيفا وسبعين عاما ..

وتركت هذه الحوادث الدامية اثرا عميقا في نفس الصبي المتحررة ، ظهر في مقالاته وقصائده وتمثيلياته بقية حياته ، راثية لامجاد العروبة ، منددة بالاحتلال والاستعمار ، مناشدة الشعب العربي ان يتضامن ويتحد وينهض ، ويتحرر من التخلف والاستكانة والجمود ، وان يصطنع الحضارة الحديثة في الصناعة والزراعة والتعليم والتجارة ، اذ لا سبيل الى ارغام هذا المحتل على الجلاء الا بمثل سلاحه الذي مكنه من غزو الاقطار في الشرق والغرب ، ولا يفل الحديد الا الحديد..

وفي ذلك العام المضطرب (١٨٨٢) صحب نجيب الحداد اسرته الى بيروت حيث واصل دراسته ، وتتلمذ في اللغة العربية وادبها على خاليه الكبيرين ابراهيم وخليل اليازجي .. وامضى بضعة اشهر من عام ١٨٨٣ يعلم بمدرسة بعلبك ..

وعاد في نوفمبر ١٨٨٣ الى الاسكندرية .. وما لبث ان انتظمته هيئة تحرير « الاهرام » وكان يكاتبها احيانا من قبل .. وامست جريدة « الاهرام » في عهدها السكندري ، المدرسة الصحفية الاولى التي تمرس فيها منذ صباه على فنون الصحافة والتحرير والترجمة. وهناك نشر الكثير من المقالات السياسية والاجتماعية ، وكان في بعضها رائدا كما في دعوته الى حقوق المرأة المنشورة في الاهرام ٢٨ من ابريل ١٨٨٣ قبيل انضمامه اليها ، وبها عرف عددا من كتاب عصره وشعرائه ، واندمج في منتدياتهم ومقاهيهم .

وفي مطبعة « الاهرام » ايضا ، بدأ شقيقه امين الحداد مدرجه الصحفي ، وطريقه الادبي ، عاملا في صف الحروف ، ثم انتقل الى الى هيئة التحرير ، وعكف الشقيقان على العمل هناك اكثر من عشر سنوات ..

وكانت « الاهرام » قد بدأت هناك حياتها المديدة منذ تسعين عاما يوم جاء الى الاسكندرية عام ١٨٧٥ شقيقان شابان اخران ، من مواليد كفرشيما بلبنان ، لينشئا بها في العام التالي لقدومهما صحيفة سمياها « الاهرام » واصدرا عددها الاول يوم ٥ من اغسطس ١٨٧٦ ، اسبوعية في اول امرها ، ولم يقنع الشقيقان : سليم تقلا (١٨٤٩ – ١٨٩٢) وبشارة تقلا (١٨٥٢ – ١٩٠١) بجريدتهما الاسبوعية ، فألحقا بها في العام نفسه جريدة يومية باسم: « صدى الاهرام » وفي العام التالي ١٨٧٧ صحيفتين يوميتين ، « حقيقة الاخبار » و « الوقت » ولكن لم تعمر هذه الصحف الثلاث الاخيرة طويلا فلما انتقل سليم تقلا الى دار البقاء عام ١٨٩٢ تولى اخوه بشارة ادارة « الاهرام » وطورها وجعلها جريدة يومية واسعة الانتشار ، ثم نقلها الى القاهرة عام ١٨٩٨ وظل عاملا على ترقيتها حتى وفاته عام ١٩٠١ .

وكان ممن زامل نجيب الحداد واخاه امين بدار الاهرام ، الادباء : خليل زينيه (١٨٦٥ – ١٩٤٤) ، وعبده بدران (١٨٦٧ – ١٩٢٤) ، ورشيد شميل مراسل الاهرام من القاهرة ومؤسس « البصير » بالاسكندرية عام ١٨٩٧ ، وخليل مطران (١٨٧٢ – ١٩٤٩) الذي انضم الى اسرة الاهرام عام ١٨٩٢ ثم كاتبها من القاهرة فترة من الزمن .. وغيرهم ..

وبعد هذه السنوات العشر المثمرة ، رأى نجيب الحداد واخوه

امين وصديقهما الصحفي عبده بدران ان ينشئوا جريدة يستقلون بادارتها وتحريرها ، فاستقالوا من الاهرام ، واصدروا بالاسكندرية « لسان العرب » ، صحيفة يومية سياسية ادبية ، ظهر عددها الاول في اول اغسطس (آب) ١٨٩٤ غير انها لم تعمر على هذا النمط اكثر من ثلاث سنوات ، انفرط بعدها عقد الشركة واستقل بها نجيب الحداد ، ثم نقلها الى القاهرة حيث اخرجها اسبوعية ادبية اجتماعية. وما لبث ان عاد الى الاسكندرية ونقل اليها « لسان العرب » وتابع كتابة مقالاته المدوية بها ..

وفي تلك الفترة انشأ نجيب الحداد وغالب طليمات جريدة يومية سياسية بالاسكندرية اسمها « السلام » . واخذ نجيب وامين الحداد ينشران بها المقالات والقصائد ..

ويؤرخ فيليب طرازي لجريدة « لسان العرب » في كتابه : « تاريخ الصحافة العربية » (ج ٤ ص ٢١٨) في قوله :

« كان لسان العرب من الصحف الحرة، المسموعة الكلمة . وقد جاهر بالحق في كل مباحثه ، وشد في بيان استبداد السلطان عبد الحميد داعيا اياه الى الانصاف في الرعية . فطارد السلطان هذه الصحيفة ، وحرج عليها الدخول الى البلاد العثمانية كي لا يقراها افراد الامة ، فيتنبهوا الى اعماله ، ويكونوا مع الاحرار يدا واحدة عليه . اما انشاؤها فهو في غاية الحسن والرشاقة والايجاز . وامتازت بفصاحة مقالاتها الافتتاحية على الخصوص . وازدان مطلع عددها الاول بقصيدة نظمها الشيخ امين الحداد حفيد الشيخناصيف اليازجي ، واحد اصحاب هذه الجريدة يخاطب بها الخديوي عباس الثاني :

ولما رأيت الشعر عندك أينعت ... رباه وفاحت عن ثناك ورودها
منحتكما من نبعة « يازجية » ... يرد لها المجد القديم جديدها
وان كانت الاسباب تمضي حدودها ... فمرهفها (حدادها) لا حديدها !

ولما قضت حال الصحافة الى تعطيل هذه الجريدة ، اصدرها اصحابها في القاهرة وحولوها من جريدة يومية الى اسبوعية . ثم اعيدت الى الاسكندرية ، ولم تتوقف عن النشر الا بوفاة صاحبها الاول الشيخ نجيب الحداد سنة ١٨٩٩ حتى اعادها عبده بدران في شهر سبتمبر ١٩٠٨ بدلا من جريدة الصباح » .

ومن طريف ما يروى عن انشاء هذه الجريدة « لسان العرب » وما كان يعترض الكتاب الوطنيين يومذاك في اصدار صحفهم من عقبات ، ما ذكره المرحوم الاستاذ صديق شيبوب في سياق مقالة له بجريدة « البصير » :

« اجتمع نجيب الحداد وشقيقه امين الحداد وعبده بدران على اصدار صحيفة ، بعد الاستقالة من الاهرام . وكان اول ما انصرف اليه اهتمامهم ان يفوزوا بامتياز الجريدة . فسافر سليمان الحداد ، والد نجيب وامين ، الى القاهرة ، واتصل برياض باشا ، فافهمه استحالة منح الامتياز . ولكنه اشار عليه بأصدار الصحيفة بلا خوف من التبعة . ثم علم انه لا خوف من الحكومة اذا صدرت الجريدة باسم اجنبي ، فان خليل زينيه معه كتاب من الداخلية تقول له فيه : افتح مطبعة وجريدة باسم اجنبي ولا احد يعارضك على الاطلاق ! فسعوا للبحث عن حماية لنجيب او للعثور على اجنبي يرضى باعارة اسمه حتى عثروا على شيخ يسمى « فالو » كان صاحب مدرسة . ثم بحثوا عن المال فوجدوه بوساطة عبده بدران . وممن ساهم في ذلك بالمال سليمان اباظه باشا وقد مدحه نجيب الحداد باكثر من قصيدة وهي منشورة في ديوانه : « تذكار الصبا » وتكفل سابا باشا مدير عام مصلحة البريد بتسهيل شئون التوزيع ..»

وأسهم نجيب في العام الاخير من حياته في تحرير مجلة : « أنيس الجليس » الادبية الشهرية التي انشأتها بالاسكندريةالاديبة اللبنانية اسكندره نعمة الله خوري المشهورة باسم « الاميرةالكسندره افيرينو» وصدر عددها الاول في ٣١ يناير ١٨٩٨ .

وهكذا كانت الصحافة المهنة التي اتخذها الشاعر نجيبالحداد وسيلة للعيش ، ولكنها كانت ايضا المنبر الذي خاطب عليه جمهوره ونادى منه بآرائه .. وفي تلك الصحف والمجلات خلف الكثير من القصائد والمقالات جمع منها بعد وفاته نحو سبعين مقالة في كتاب : « منتخبات الشيخ نجيب الحداد » المطبوع بالاسكندرية عام ١٩٠٣ ثم اعيد طبعه عام ١٩٠٦ .

ويلاحظ المطلع اليوم على هذه المقالات المكتوبة في اواخر القرن التاسع عشر ان صاحبها كان سابقا لعصره في الدعوة الى اصطناع الحضارة الحديثة دون المساس بالعادات الشرقية السليمة ، ومن ذلك ترقية الصناعة والزراعة والتجارة ونشر العلم والتعليم ، وتربية الفتاة ، وانصاف العامل والخادم ، والقضاء على تجارة الرقيق ، وعلى الحروب والاستعمار ، والعمل على النهوض بالامم العربية وتضامنها ، كما يلاحظ ان اسلوب هذه المقالات يمتاز ببلاغة العبارة وصحة اللغة ، وبالسهولة والوضوح في التصوير وابراز الفكرة .. وقد وصف المنفلوطي صاحبه بقوله : « كاتب من احسن كتاب هذا العصر ، وشاعر من ارق شعرائه ، ومترجم من اقدر المترجمين على الترجمة السهلة الفصيحة السائغة » .. ونعته احمد حسن الزيات : « بالاديب الكبير ، والصحفي البارع والمترجم القدير .. » وقال عنه جورجي زيدان : « ويجوز عده من الصحافيين ولكن الشاعرية غالبة عليه ... »

ولقلما كانت تخلو احدى مقالاته السياسية او الاجتماعية او الادبية من دعوة الى اصلاح ناحية من المجتمع العربي الذي وجب ان يتساوى مع المجتمعات المتمدنية الاخرى .. فما كان في مقدور الانجليز ان يحتلوا الاقليم المصري عام ١٨٨٢ لو انه كان علىمستواهم الحضاري العلمي والصناعي والثقافي والدفاعي . وعلينا الا نصدق وعودهم في الجلاء العاجل ونحن على ما نحن عليه من تخلفوانقسام وجمود .. وهكذا تعاقبت حملاته في مقالات تحمل هذه العناوين : انكم تخدمون الانجليز .. الانجليز لا تقف في سبيلهم عقبة وهم عقبة في كل سبيل .. الجلاء عن مصر .. كيف يكون الاستقلال .. الحقيقة ومصر .. الوطنية .. الخ ..

وفي الوقت نفسه يدعو في نقداته الاجتماعية الى ما يراه من تخلف يحتاج الى اصلاح شامل في مثل هذه المقالات : الغنيوالفقير، صغار العمال ، الزواج ، الطلاق ، تربية البنات ، الشبيبة في مصر ، فتيان اليوم ، تربية المرأة ، المرأة والعلم ، المرأة والولد ، الخادم والمخدوم ، ملجأ الفقراء ، انتقاء العروس ، الغيرة ، الحرب ، تجارة الرقيق ... الخ ..

ويعالج في موضوعاته الادبية : جرائد اليوم ، خمول الادب ، حقيقة الهمجية ، العلم والجرائم ، سارقة الرغيف ، لصوص الافكار ، كيف تعظم العقول ، خطرات افكار ، ساره برنار ... الخ..

هذا الى جانب ما كان يضمنه قصائده الوطنية والاجتماعية ومسرحياته من اشارات ناقدة هادفة ، ناقدة لمجتمع عصره في اواخر القرن التاسع عشر كما سلف .

ففي مقاله مثلا عن : « كيف يكون الاستقلال » يقول :

« .. وانما الاستقلال الحقيقي الذي تطمع فيه كل امة شرقية، وينبغي ان تقتدى فيه بكل امة غربية ، هو ان تستغني ببلادها عن بلاد سواها ، وبمصنوعات سكانها عن مصنوعات الاجانب عنها ، وبضروريات معاشها على الاقل عن جلب هذه الضروريات من غيرها ، حتى لا يكون الرجل منا اجنبي الظاهر في جميع حالاته بين ثيابه واثاثه وادواته ... »

وفي : « الانجليز عقبة في كل سبيل » يقول :

« ... فقد وجب علينا ابناء العرب من سكان هذا القطر اذا

كنا نريد منها الجلاء عنا وترك ربوعنا لنا ، وان لا تقف عقبة في سبيل حريتنا واستقلالنا ان نحاربها بالسلاح الذي حاربت به الدنيا، وملكت به اطراف المعمور ، وهو تمدن الاخلاق ، وانتفاء التعصب بين ديني وجنسي ، واتحاد الجميع على الخير والاصلاح ، والاخذ باسباب العلم ، والرقي في مدارج الحكمة والعدل حتى نكون امة يحق ان يقال لها الامة العربية ، وحتى لا ندع لغيرنا سبيلا يقول لنا فيه انتم جماعة متفرقون ، تبعد بينكم المذاهب الدينية والجنسية، وحتى يمكن ان يشار الينا فيقال : هذه الامة العربية ، كما يقال الدولة الانجليزية . ولا يتوهمن قوم ان ذلك بعيد الحصول ... »

ويخاطب ارباب الصحف المتخاصمين في عهده :

« .. الا تدرون انكم بذلك تخدمون الانكليز وانتم لا تشعرون ؟ الا تعلمون ان المحتلين لم يفسحوا لكم هذه الحرية في جرائدكم الا لكي تصلوا الى هذا الحد المهيج وتجعلوا لهم به سببا للبقاء بينكم او اطالة الاحتلال عليكم ... ؟ »

وفي مقالة : « انكم تخدمون الانجليز » يقول :

« ... ولقد آنس الانكليز من ابنائنا هذه النية ، وعرفوا منهم خفايا تلك الضمائر والاقوال ، ورأوا انفسهم قد احتلوا مصر بقعة مخصبة وغنيمة باردة ، لا يروق لهم تركها ، ولا يرضون بوفاء وعودهم فيها ولو كانت تلك الوعود على رأس البنان .. فاحبوا ان يفتحوا للرعية المصرية ابواب شقاق ونفور ، ويمهدوا لهم آثار عصيان واضطراب ، تكون لهم حجة على البقاء ، وعذرا دائما في طول الاحتلال ، فاطلقوا للاهالي عنان الحرية بما لم تتعوده مصر من قبل ... وهم لا يريدون بذلك نفع مصر ، ولا يبغون تسكين البلاد تماما كما هو الظاهر من نتائج اعمالهم الى الان ... »

وكتب عام ١٨٩٦ مقالة بعنوان « الجلاء عن مصر » جاء بها :

« ... مضى على الاحتلال الانجليزي اربعة عشر عاما ... وقد اتى على الجرائد كل هذا الحين من الدهر وهي منقسمة فيه بين قائلة ببقائه وهي القليلة النادرة في هذا القطر ، وبين منادية بوجوب زواله وانقضائه وهي الكثيرة المستفيضة بين ايدي القراء ... »

ثم يتساءل : ولكن اين العمل الوطني على الاستقلال الاقتصادي الذي به تتحرر البلاد من التبعية ويقول :

« .. ولا يخفى ان كل بلاد متمدنة عامرة حرة انما تقوم بامور ثلاثة لا ندحة عنها لتمام العمران والحرية والاستقلال ، وهي الزراعة والتجارة والصناعة .. » . وبعد ان يقارن بين حال هذه الامور الثلاثة عندنا وبين حالها في البلاد المتمدنية ويرى ان التجارة عندنا كلها في يد الاجنبي ، يقول : « واذا اخذنا الصناعة اخيرا وهي رأس الحاجات واول الضروريات ، فهل نجد بين ايدينا منها اثرا مما هو للاجانب في بلادهم ؟ فاين معاملنا واين اختراعاتنا ومناسجنا واين مصانع الحديد والآلات عندنا ... ؟ »

وعن انصاف العامل الوطني : « ما ضر بعض الاغنياء الذين يجمعون المال اكداسا فوق اكداس .. لو اجرى بعضها في سبيل الاعمال ، واباحها موارد اشغال ، له وللعاملين وبابا للمكاسب والرزق الحلال ، وشارك امثاله في نعمة الله عليه فاكسبهم ولم يخسر وكان له الفضل في كل حال .؟ » (١)

وفي خلال عمله الصحفي كان نجيب الحداد لا يني عن الاسهام في الحركة المسرحية في عصره ، وكان من روادها سواء بوضع التمثيليات العربية ام بترجمة روائع المسرح الاوربي ، ام بنظم الاغاني والاناشيد المسرحية .. كما اسهم في الحركة القصصية بتأليف القصص وترجمتها .. وظهر له من التمثيليات والروايات ـ ما بين مؤلف ومترجم ـ نحو ثلاثين رواية .. واعانه على ذلك تبحره في اللغتين العربية والفرنسية ، واطلاعه على ادبيهما القديم والحديث..

ولا شك ان تلك الحركة المسرحية العربية التي ظهرت بواكيرها بلبنان ومصر منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت فرقها التمثيلية تفد الى الاسكندرية ، فشهد بعض نواحيها منذ قدومه الى مصر طفلا عام ١٨٧٣ حتى وفاته عام ١٨٩٩ لا شك انها تركت اثرا عميقا في نفسه ، حرك مواهبه الادبية ، فاستجاب لهذا الاثر ونزل الى ذلك الميدان .. فهذه فرقة يعقوب صنوع (١٨٣٩ ـ ١٩١٢) التي بدأت عملها بمصر عام ١٨٧٠ وظلت عاملة حتى غضب الخديو اسماعيل على صاحبها ونفاه عام ١٨٧٨ .. وهذي فرقة سليم نقاش التي جاءت من لبنان الى الاسكندرية عام ١٨٧٦ ، واخذت تمثل مسرحيات مارون النقاش وسليم النقاش واديب اسحق ـ المؤلفة والمترجمة ـ حتى انتقلت الى يد الممثل يوسف الخياط لتحول سليم واديب الى الصحافة .. وهذه تمثيلية « المروءة والوفاء » الشعرية التي وضعها خليل اليازجي عام ١٨٧٦ حول قصة حنظلة والنعمان ، وكانت تمثل وتطبع غير مرة .. وكانت هناك فرق ابي خليل القباني، واسكندر فرح (١٨٩١) وسليمان القرداحي ، وكان الشيخ سلامه حجازي قد بدأ حياته المسرحية مع هاتين الفرقتين الاخيرتين قبل ان يستقل بفرقة خاصة عام ١٩٠٥ ، وعرفه نجيب الحداد يومذاك ..

ووضع نجيب الحداد من التمثيليات المؤلفة : روايات المهدي، وعمرو بن عدى ، والرجاء بعد اليأس ، وثارات العرب ، وصلاح الدين الايوبي (والاخيرة مع بعض الاقتباس) ..

وترجم عن موليير : البخيل ، والطبيب المرغم .. وعن كورني : السيد ، وسنا ، واديب .. وعن راسين : فيدر ، وبيرنيس.. وعن فولتير : زايير ، وقتل القيصر .. وعن شكسبير : روميو وجوليت (او شهداء الغرام).. وعن غيرهم ، حمدان ، وحلم الملوك ، وميلادي ، وعداوة الاخوين ، والرواية الشعرية .. وقد طبع هذه التمثيليات ويلاحظ عليها بعض التصرف في التعريب لمقتضى التمثيل والغناء ..

وكان نجيب الحداد ينظم القصائد والمقطعات الشعرية السهلة خلال تلك التمثيليات المؤلفة والترجمة والمقتبسة ، كيما تلحن وتنشد في سياق التمثيل ، كما جرت العادة في عصره ، اذ كان للغناء والطرب المقام الاول في نظر اهل ذلك العصر .. واشتهر الكثير من تلك القصائد التي كان يلحنها ويغنيها الشيخ سلامه حجازي ، كما سجل بعضها على اقراص « الفونوغراف » ، فكان الناس يحفظونها لبساطتها وينشدونها في كل مكان ولم تزل مشهورة ، ومن مثال ذلك القصيدة التي يغنيها روميو (سلامه حجازي) ومطلعها :

عليك سلام الله يا شبه من اهوى   فياحبذا لوكنت تسمع لي في الهوى شكوى
اذن لشكا قلبي اليك غرامه   وبثك ما يلقى من الوجد والبلوى

او القصيدة التي ينشدها روميو ايضا على قبر جوليت :

سلام على حسن يد الموت لم تكن   لتمحو او يمحو هواه من القلب
جوليت ما هذا السكوت ولم اكن   لاعهد فيك الصمت عني في قربي !

والقصيدة التي يغنيها وليم في تمثيلية « صلاح الدين الايوبي » ومطلعها :

انكنت في الجيش ادعى صاحب العلم   فانني في هواكم ادعى صاحب الالم
يا من تملكتم قلبي فكان لكم عبدا   وكنت لهذا العبد من اطوع الخدم

وفي باب القصة الطويلة وضع نجيب الحداد رواية « غصن البان » ، وترجم عن الفرنسية عددا وافرا من الروايات منها : الفرسان الثلاثة ، وفرسان الليل ، وحديث ليلة ، وغرام وانتقام ، وغرام الاخوين ، وفضيحة العشاق ، والعاشقة المتنكرة .... وغيرها.

ويبدو ان اشتغاله بترجمة تلك الروايات المشهورة ، كان اساسا كاشتغاله بالصحافة ، مورد للرزق وهو من لم يكن له مورد اخر غير قلمه ، اما عمله الادبي الباقي بعده فهو شعره الوجداني والوطني ..

ويجمع النقاد على ان نجيب الحداد كان شاعرا اولا واخيرا .

وان شعره بعامة ، وشعره الوجداني بخاصة ، يضعه بين كبار شعراء عصره وكانوا يحتذون الشعر العربي القديم في فخامته وجزالته .. وكان هو من شعراء الاتباعية والابتداعية معا . ويتضح تأثره بالشعر العربي التقليدي الى جانب الشعر الفرنسي الحديث وبخاصة شعر لامرتين ودي موسيه وهوجو .. وكثيرا ما تطغى شاعريته على مقالاته الصحفية ورسائله الادبية وعلى قصصه وتمثيلياته ..

وتنوع شعره ما بين وطني واجتماعي ووجداني ، وخلف شعرا منظوما كثيرا كان ينشر بعضه في الصحف والمجلات ، واكثره يرصع به القصص والتمثيليات . ويهدي بعضه الاخر الى اصدقائه .. ولم يمهله الاجل . وقد مات في زهرة العمر لينشر ديوانه ، فجمعت صاحبة مجلة « انيس الجليس » ألكسندره افيرينو عددا من قصائده، وطبعته على نفقتها في ديوانه المسمى « تذكار الصبا » ثم ظهرت بالاسكندرية طبعة ثانية عام ١٩٠٥ .. وذيلت مجموعة مقالاته : « منتخبات نجيب الحداد » عام ١٩٠٣ بسبع قصائد له ، منها : مصر والمصريون ، تذكار مصر ، الحب والخمر ، القمار ، بدء الهوى ... كما تضمن الكتاب الذي ألفه الاستاذ عادل الغضبان عام ١٩٥٣ عن « الشيخ نجيب الحداد » نحو عشرين قصيدة منوعة الاغراض بعضها مما لم يرد في ديوانه .. ومع ذلك فلم يجمع بعد كل او جل شعره في ديوان شامل ..

ومن قصيدته : « مصر والمصريون » : (٢)

يا ارض مصر تحيـة وسـلام	وسقاك من صوب الغمـام ركـام
ارض اذا لم يعل في ارجائهـا	علم فـان كرامهـا اعـلام
والشرق وجـه يزدهي بجمالـه	بشـرا ومصر ثغـره البسـام

وفي قصيدة : « الشرق » :

ليس نيل العلى بصعب اذا ثـا	رت اليـه حميـة قعسـاء
نحـن ابناؤهـا ومن نصـر الآ	بـاء تنصـر بفضله الابنـاء
كلنا واحـد لنـا وطن فـرد	وان عـددت بنـا الاسمـاء
انما نحن هيكـل واختلاف الا	سم وهـم فكلنـا اعضـاء

ويتغنى بشاطىء الاسكندرية :

للـه در البحـر من مصـور	يصـور الجسـم جلـي المنظـر
ويظهـر الاعضـاء تحـت المئـزر	كأنهـا بـارزة لـم تستـر
مـن اسـود وابيض واحمـر	كالروض قـد حلاه نـور القمر
ببـرده الشفـاف فوق الزهـر	يظهـره رسمـا وان لـم يظهـر

وفي الحنين الى لبنان :

قف في ربى لبنان بـين وهـاده	واقرأ السـلام لاهلـه وبـلاده
جبل بارض الشرق قـام وفوقه	قد قامت الاطـواد مـن افـراده
شوقي الى تلك الديـار واهلها	شوق المريد الى بلـوغ مـراده

وقد تحدث عن الحداد صديقه الاديب طانيوس عبده ، في ذيل ديوانه ، ومما قال : « اما صفاته فهو ربعة القامة ، حنطي اللون ، كثير التصور ، حاد الذهن ، سمح البديهة حتى انه قد يرتجل القصيدة الطويلة على نفس لا يقطعه . واذا اقترحت عليه الكتابة في موضوع فهو يسبق جنانه اللسان ، ويعدو قلمه البنان . وهو طاهر القلب ، عف الضمير ، مهذب الاخلاق ، لطيف المحاضرة، فصيح الكلام . فاذا تكلم انصتت اليه الاسماع ، وشربت حديثه العذب كل الطباع .. »

وكان العمل قد هد قواه واضناه ، فاصيب بذات الرئة ، ولم يمهله الداء طويلا وتوفي في ٩ من فبراير ١٨٩٩ غير متجاوز الثانية والثلاثين من العمر . ونعته الصحف يومذاك ورثاه الشعراء ، ومما جاء في مرثية صديقه خليل مطران :

اربأ بنفسك ان تكـون نجيبـا	وازجر خليلك ان يكون أديبـا
فلقد ارى موت الاديـب حياتـه	والعيش موتـا يلتقيـه ضروبـا

ثم بدأ المؤرخون للادب العربي والصحافة العربية يترجمون لحياته ويدبجون المقالات عن جهاده وكتاباته ، وفي مقدمتهم جرجي زيدان ، ومارون عبود ، والاب لويس شيخو ، وحنا سركيس ... وغيرهم (٣)

٢ ـ الشيخ أمين الحداد ١٨٦٨ ـ ١٩١٢

هو الكاتب الصحفي الشاعر أمين الحداد شقيق الشيخ نجيب الحداد ، وزميله في العمل والجهاد .. ومثله ربيب الاسرة اليازجية التي تنتسب اليها والدته ابنة الاديب العالم الشيخ ناصيف اليازجي.

وولد امين الحداد ببيروت ، لبنان ، في أواخر عام ١٨٦٨ لابيه الشاعر سليمان الحداد . ثم جاء الى الاسكندرية مع اسرته عام ١٨٧٣ طفلا في الخامسة ، وتعلم في مدارسها ، وعـمل بها مع اخيه فى الصحافة منذ صباه . ولازمه حتى وفاته الباكرة عام ١٨٩٩ ثم تابع بعده كفاحه القلمي نحو ثلاثة عشر عاما .

وبدأ أمين الحداد حياته الصحفية عام ١٨٨٣ عاملا في صف الحروف بجريدة الاهرام في عهدها السكندري صبيا في الخامسة عشرة ، ثم انتقل الى هيئة تحريرها وظل بها اكثر من عشر سنوات يتمرس بفنون الصحافة والتحرير ... وفي عام ١٨٩٤ استقال من الاهرام مع اخيه نجيب وزميلهما عبده بدران ، وانشأوا جريدة « لسان العرب » اليومية التي صدر عددها الاول في اول اغسطس ١٨٩٤ حتى انفرط عقد هذه الشركة بعد ثلاث سنوات ، استقل بعدها نجيب الحداد باصدارها ونقلها الى القاهرة ادبية اسبوعية . ولكنه ما لبث ان أعادها الى الاسكندرية وواصل اصدارها حتى وفاته ، وكان أمين الحداد ينشر بها مقالاته وقصائده .

ثم كتب أمين الحداد بجريدة « السلام » التي اصدرها أخوه ، وبجريدة « الاتحاد المصري» (وكانت تصدر بالاسكندرية منذ عام ١٨٧٠) .. ثم بمجلة « انيس الجليس » التي أصدرت صاحبتها « الكسندره افيرينو » عددها الاول بالاسكندرية في ٣١ يناير ١٨٩٨ وظلت تصدر حوالي عشر سنوات .. وكان أمين ينشر بها المقالات والقصائد ومعظمها بلا توقيع .. كما تولى ايضا التحرير منذ عام ١٨٩٩ بجريدة «البصير» (التي أنشأها رشيد شميل بالاسكندرية عام ١٨٩٧) وكا ن يعمل بهذه الصحيفة حتى وفاته يكتب الافتتاحيات وغيرها باسلوب عربي رصين..

وكتب أمين الحداد عام ١٩٠٥ في مذكراته المنشورة بكتابه المجموع بعد وفاته « منتخبات أمين الحداد » :

« انا الان في نحو السابعة والثلاثين من عمري . وصناعتي الانشاء والتحرير في جريدة « البصير » ومجلة « أنيس الجليس ». ولكني أكتب في كليهما بدون توقيع . وانني شاعر أيضا ، والشاعر ضنين بمجده ، مفتون بكلامه . ولكني مع كل هذا اتعمد ذلك الخلق بالتساهل فلا أوقع على نظمي بل أهبه لسواي كثيرا ولو كان جيدا أشرق به . وانما افعل هذا في مجلة « انيس الجليس » خاصة لان صاحبتها هي « ألكسندرا أفرينو » وهي امرأة بارعة الجمال . ولكن ليس لجمالها سلطان علي بالاطلاق . بل أهبها ذلك في نظير ما تهبه من اجرة ، وفي

---

(١) هذه الفقرات من مقالات نجيب الحداد بكتابه « المنتخبات» ط ـ ١ ـ ١٩٠٣ (٢) الابيات من ديوان « تذكار الصبا » لنجيب الحداد وقصائد المنتخبات (٣) جرجي زيدان : « تراجم مشاهير الشرق » ج ٣ و « تاريخ اداب اللغة العربية » جـ٤ .. و « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود.. و « الاداب العربية في القرن التاسع عشر » للاب لويس شيخو ج ٢ .. و « الفرر التاريخية في الاسرة اليازجية» لعيسى اسكندر المعلوف .. و « تاريخ الادب العربي » لاحمد حسن الزيات ص ٤١٩ .. ومقالة لحنا سركيس في ذيل ديوان الحداد .. ومعجم سركيس حرف الحاء .. ومقالة لطانيوس عبده في ذيل ديوان الحداد .. وكتاب « الشيخ نجيب الحداد » لعادل الغضبان ١٩٥٣..

يلح علي الشوق

ألانشد مـا القاه من ألـم البعد ... بنائيـة قفـراء عاثـرة الجد
وحل حباه الجهل فـي عرصاتها ... فضل بها الساري وضاع بها الكعدي
فما في حماها صاحب ذو حميـة ... ولا سكن صدق يخفف مـن وجدي
وكيف يلذ العيش للشاعر الـذي ... يعـيش غريبا في مهامهها الربـد
وعندي ابــاء لا يلـين لغامز ... تحدى اديبـا عاش في قمم المجد
وما مرضت لـي فـي المطالب همة ... ترى العيش كل العيش في شرف القصد
نأيت عـن المدن العواصم مؤثـرا ... عليها حياة البرمـع عيشة الزهـد
حيـاة مضاضات تمـد رواقهـا ... علـي فالقاها بتسبيحة الحمـد
فكم من نـاد قـد تحملت باسما ... طروبا بحزني لا أعيـد ولا ابـدي
وعودت نفسي ترك مـا كان شائكا ... ورحت اغني في شقائي وفي سعدي
هـو الكون لا تعتب عليه فانـه ... ليأخذ احيانـا ويعطي بـلا عـد
تركت الدنايا خلف ظهري محلقـا ... باحلامي الخضراء في رفرف الخلـد
وهل انـا الا شاعر كـده النوى ... بعيدا عن الاوطان مضطرب المهـد
تهاجمني الادواء مـن كـل جانب ... فاضحك ضحك السخر من زمني الرغد
فقد كـان احرى ان اعيش بموطني ... بلبنان مهد العز والعيشة الرغـد
يلح علي الشوق فـي كـل ساعة ... ألا ارجع نحو ارضك يـا كعـدي
ففي الارز اصحاب اذا مـا ذكرتهم ... ذكرت صباي الفض في المربع النجد
ومم أزدهى نفسي وهز حماسهـا ... جنائن في ((صنين)) دانية الرفـد
نتوق لمرآهـا وشم زهورهـا ... وقيلولة تحت الصنوبـر والرنـد
فتصدمنـا الايام صدمة نـاقـم ... فنحيا على ذكرى المواطن في البعـد

لاباز ـ بوليفيا

جورج كعدي

نظير ما ينبغي من الرجل للمراة . اما دل سلطانها لدي فلشدة ائتلافي بها الى حد الاخوة ، ولكوني شغل شاغل عن الحسن من خلقي ومن همومي ونيلي في دنياي أقل من استحقاقي .. »

وأمن على هذا صديقه حنا سركيس في مقدمة هذه ((المنتخبات))

((.. فقد ذكر عند كلامه عن ((أنيس الجليس)) انه كان يكتب في نظير الاجرة التي كان يتناولها . وهو قول وان كان صحيحا ،ولكن الاصح منه ان وفاءه الشديد لصاحبة الانيس ، وبقاءه على خدمتها الى اخر ايامه انما كان من قبيل الاعتراف بالجميل الذي صنعته مع أخيه نجيب أيام اعتلاله وموته..))

واصيب أمين الحداد في اواخر حياته بعلة في الكبد ، فسافر الى لبنان في صيف ١٩١٢ للاستشفاء ولكن المنية عاجلته هناك ، وتوفي في ٥ من اغسطس (اب) ١٩١٢ .

وخلف امين الحداد اثارا ادبية كثيرة من شعر ومقالات وقصص ـ ما زال معظمها مشتتا في الصحف والمجلات السالفة الذكر ـ اذ كان زاهدا في شؤون الدنيا ، قليل الاكتراث بحفظ اثاره . وقيل انه جمع يوما ديوان شعره ولم يطبعه ، فوقع بعد وفاته بين يدي من أضاعه فلم يطبع للان ..

وكان قد طبع له عام ١٩٠٧ رواية ((هملت)) التي ترجمها عن شكسبير ..

وجمع بعض أصدقائه عددا من مقالاته المنشورة في الصحف ، وطبعها بالاسكندرية عام ١٩١٣.

وكان امين الحداد كأخيه نجيب شديد الوفاء للعروبة ، ولوطنه الثاني مصر ، مهتما باصلاح الحياة الاجتماعية في عصره ، داعيا الى تحرير الامم العربية كافة من ربقة الاستعمار ، والى الحرية الاجتماعية والفكرية .

الاسكندرية

نقولا يوسف

من أعلام الفكر والادب في فلسطين

محمد علي الطاهر - الشيخ فهمي هاشم

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - محمد علي الطـاهر

من أمتع ساعات العمر وأشهاها أن يسجل المؤرخ المنصف سير اعلام لمعوا في سماء الفكـر والادب بريشة التجرد والنزاهة . ومن ابرز أماني المحقق المحايد أن يطري جهاد الوطني الجريء محمد علي الطاهر ويصور العذاب الـذي اكتوى بناره في سبيل عقيدته ، ويشيد بالصعاب التي واجهها طيلة عمله الشاق الشائك في الحقل القومي .

ولد « أبو الحسن » في نابلس عام ١٨٩٦ وتـلقى تعليمه الابتدائي والاعدادي في مدارسها الاميرية ، وفي الحرب العالمية الاولى أودع معتقل الجيزة عام ١٩١٥ وظل يبلو الشدائد في معتقله حتى وضعت الحرب العـالمية أوزارهـا .

وبعد زوال شبح الحرب الكبرى عاد الى فلسطين ليعمل في بلاده لكن ظلم الانكليز حمله على الهجرة لمصر، دارة الاحرار ، ليشرح ظلامة فلسطين وليكشف عن النوايا الخبيثة التي يضمرها المستعمر لتهويد البلاد المقـدسة وطرد أصحابها الشرعيين منها وقـذفهم الى الصحراء حطابين وسقاة ماء !

وليتمكن من مناجزة الخصم الغشوم نال امتيازا باسم جريدة « الشورى » وصدر العدد الاول منها في القاهرة بتاريخ ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٤ فكانـت هذه الصحيفة وبالا على الاستعمار وزبانيته وجريدة العالمين الاسلامي والعربي ولسان الثورة السورية في آفاق الارض حين كانت صحف سورية ولبنان مكممة خائفة من فرنسا، لكن المستعمرين تنبهوا لهذه الصحيفة الخطرة فحاربوها سرا وجهرا ومنعوا دخولها الاقطار العربية والاسلامية الواقعة تحت النفوذ البريطاني والفرنسي والايطالي .

وتغلبا على منع جريدته ومصادرة اعدادها عمد الى *اصدار « الشورى » باسماء اخرى منها : « الرقيـب »* « المنهاج » « الناس » « الجديد » « الشباب » « العلم المصري » . ولم يكن هذا الوطني المؤمن في جهاده مقتصرا على قضيتي فلسطين ومصر بل تجاوز التخوم الى الدفاع بحرارة عن قضايا العالمين العربي والاسلامي . وقبل اصدار « الشـورى » وبعده نشر عشرات المقالات في صحف البلاد العربية والمهجر دفاعا عن وطنه المغصوب وامته المشردة !

وفي الحرب العالمية الثـانية جـمدت السلطات البريطانية في مصر نشاطه بداعي نشوب حـرب كبرى فأحس بالشر المبيت له واوقف من توه جريدة « العلم المصري » التي أصدرها بدلا من « الشورى » وحل «اللجنة الفلسطينية » وكف عن نشاطه السياسي ! لكن الانكليز طلبوا من علي ماهر باشا رئيس الوزارة المصرية في ذلك الحين اعتقال الطاهر وسجنه لكن « ماهرا » رفض طلبهم فحنقوا عليه واسقطوا وزارته وعهدوا بتأليفها الى حسين صبري باشا .

وبعد أن عطلت السلطات المصرية « الشورى » أصدر جريدة « الجديد » لصاحبها المرحوم الدكتور محمـود عزمي فبادرت السلطات المسؤولة الى تعطيلها فأصـدر بدلا منها مجلة « الشباب » لصاحبها الدكتور محمود عزمي لكن السلطات المصرية عاجلتها بالتعطيل . وتدليلا على شمم « الجيل القديم » واريحيته اسجل للتاريخ نـص الرسالة التي وجهها الدكتور عزمي الى صاحب «الشورى» متنازلا عن امتياز «الشباب» وقبلها « الجديد » :

القاهرة في ٢٣ يناير ١٩٣٧

أخي وعزيزي الاستاذ محمد علي الطاهر

ما أشبه الليلة بالبارحة ! في سنة ١٩٢٦ حيـل بينك وبين اصدار جريدتك الجريئة الصادقة «الشورى» وكان « الجديد » لي فقدمته لك تصدره كما تشاء حتى لا يسكت صوتك المدافع عن الحقوق العربية جميعا . واليوم يحال دون استئناف جهادك بالامتنـاع عن استئناف التصريح لك باصدار « الشورى » ولدي مجلة «الشباب» فأبادر بتقديمها اليك تصدرها وتشرف على تحريرهـا وادارتها بمطلق حريتك دفاعا عن الحقوق العربية التـي تعرف قدر شغفي بتأييدها وتدعيمها وبمطلق تصرفـك فيما يتصل بايراداتها ومصروفاتها ، راجيا أن اساهم بهذا بعض المساهمة في نصرة القضية العربية الكبرى .

وفي طي هذا كتابان احدهما لمصلحة الصحافة والنـشر والثقافة وثانيهما لمصلحة البريد متصلان بتنفيذ وضعي « الشباب » تحت تصرفك أرجو أن تتفضل بابلاغهما الى جهتي الاختصاص .

وعد يا (أبا الحسن) الى جهادك الصحفي المقـدور في سبيل العروبة والحرية والسلام عليك ورحمة الله ، المخلص : (محمود عزمي) ، ،

وبعد ان اصدر الاستاذ الطاهر جريدة « الشباب » هنأه الشاعر الكبير ابراهيم الدباغ بالابيات التالية :

وسانحة لقيت بهـا ارتياحـا   وقـد بعثت الـى قلبي الحبورا
وطار من المسـرة كـل قلـب   ومـا امسكت قلبي ان يطيرا
بدا في عالم الصحف انقـلاب   كبير يخلـب العقـل الكبيـرا
لقد وعظ الزمان بهـا والقـى   دروسـا ثـم دونهـا سطـورا
« ابا الحسن » انتصفت وقد امنا   بعدل الحكم ، بعدك ان يجـورا
وازرى بالصحائف مـا شهدنـا   وبات القوم في القطرين بـورا

تسجل كل حادثة بطبل … وتسمعنا على الطبل (الزمورا)
وغيرك من يزاولها ابتذالا … وينطق ماجنا وينحط زورا
اذا الاشياخ بالامر استبدوا … أهبنا... بالشباب فهاد (ثورى) !

في خريف عام ١٩٤٠ أوعزت السلطات البريطانية في مصر بالقبض على محمد علي الطاهر وحجزه ، وفي ١٤ نيسان ١٩٤١ ارتدى لباس (ابن البلد) وغافل الحرس متنكرا وهرب من مستشفى السجن واختفى حوال السنة، متنقلا بين المنصورة وطنطا ودمنهور والاسكندرية ودمياط والسويس . وأخيرا استقر في المنصورة وسكن غرفة في حي قديم باسم « محمد الناجي » وطبع بطاقات باسمه الجديد . وفي سمنور اتخذ اسما اخر هو « يعقوب البخاري ».

وفي ٥ شباط ١٩٤٢ حمل الانكليز الملك فاروق على اقالة حكومة سري باشا وعهد الى مصطفى النحاس باشا بتأليف وزارة جديدة ، ونظرا للعلاقات الطيبة التي كانت تربط صاحب «الشورى» بالنحاس باشا وبالدكتور محمد صلاح الدين بك سكرتير عام مجلس الوزراء بارح محطة المنصورة بالقطار عن طريق طنطا وبلغ ميدان باب الحديد بالقاهرة بزي صعيدي ونزل بفندق مجاور لسوق السمك ينزل به فقراء الصعايدة وسجل اسمه في دفتر الفندق باسم « محمد ناصر — تاجر غلال من كفر الغاب بمركز شربين » .

وبعد أن نفض عن جلابيته غبار السفر نزع العمامة عن راسه وفك حزامه ، وكان في الاصل كوفية ، وسحب من عبه عقالا جعله فوق الكوفية والقى عباءة عتيقة على كتفه ورباطا على عينه اليسرى وتوجه الى باب الحديد بزي بدوي وامتطى سيارة اجرة فخمة وصل بها الى بيت قريب له في حي السكاكيني وهناك أخذ عباءة اصفهانية فخمة كان اودعها دار قريبه واستأنف سيره الى دار رئاسة الوزراء ودخلها بشكل امير عربي ذي شأن ... وهنا وقف الحراس وأدوا التحية للامير الخطير . واغتنم « أبو الحسن » هذا الموقف فصعد الدرج المؤدي الى مكتب رئيس الوزراء ومكاتب السكرتيرية وأوهم رئيس حجاب دار الرئاسة انه على موعد مع صديقه الحميم الدكتور محمد صلاح الدين بك سكرتير عام مجلس الوزراء لكن رئيس الحجاب اجاب الامير العربي بان الدكتور محمد صلاح مريض منذ امس ، فرد الامير — الطاهر بقوله : « ان الدكتور سيأتي لمقابلتي بالرغم من مرضه أو انه كلف أحد مساعديه بانتظاري !»».

ولما بلغ الاستاذ الطاهر الطابق الاعلى وأشرف على البهو الكبير الذي تقع فيه مكاتب الرياسة كان رئيس الحجاب لا يزال بجانبه وهو يصعد معه كتفا الى كتف تقريبا ، ولما رأى الحرس والحجاب رئيسهم يزامل الضيف بتواضع وهو يصعد متأخرا عنه بمسافة درجة ظنوا انه يعرف مكانة الامير ، فلم يسعهم الا الوقوف واداء التحية العسكرية ، فأجابهم عنها بحركة بطيئة متزنة ووقف في آخر البهو وطلب من رئيس الحجاب أن يستأذن له بالدخول على مساعد الدكتور محمد صلاح الدين، ولم يكن الاستئذان غرضه ، بل قصد من ذلك أن يفتح له اي باب ليدخل ويبتعد عن عيون الشرطة والحرس ولاسيما ان النحاس باشا رئيس الوزراء يوشك أن يصل وأمامه حرسه المسلح ومعظمه من رجال البوليس السري، ولما فتح رئيس الحجاب الباب القريب اقتحم الاستاذ الطاهر الغرفة فوجد موظفا لا يعرفه فعاجله بقوله : « انني على موعد مع الدكتور محمد صلاح الدين بك ! » فوقف الموظف وقال: « انه مريض وانا سكرتيره الخاص !» فقال الطاهر: «اريد مقابلة نائبه ! » فقال : « انه شقيقه الدكتور ابراهيم عزالدين ! » ومشى النائب الى مكتب النائب مصحوبا بالامير العربي ثم فتح بابا ادى الى غرفة واسعة يجلس في ركن منها بعض الاشخاص ، فطلب الطاهر محادثة الدكتور ابراهيم عزالدين فنهض من بينهم شاب لطيف الشمائل وقال : « انا هو » فأجابه الامير : « كنت اود الاجتماع بشقيقك ولكنه لم يأت بسبب مرضه ، فهل لك ان تستقبلني نيابة عنه وان نكون وحدنا ؟» وهنا نهض الزوار وغادروا الغرفة . ولما اصبحا وحيدين رجا الطاهر الدكتور ابراهيم ان يمنع دخول أحد لمدة عشر دقائق وصارحه بقوله : « لست شيخا عربيا كما تراني ... بل أنا افندي متنكر واسمي (فلان) ومهنتي (كذا) وأناصديق لشقيقك الدكتور محمد صلاح الدين بك الذي مرض اليوم لسوء حظي ، ورجائي ان تقوم أنت بما كان شقيقك ان يقوم به من اجلي !» فأبدى الدكتور ابراهيم استعدادا لمساعدته .

وهنا صارحه الاستاذ الطاهر بهربه من السجن وقدومه الى رئاسة الوزراء ليسلم نفسه الى رئيس الوزراء، ورجاه الذهاب الى النحاس باشا حالما يصل الى مكتبه ويخبره بالامر ، والاذن منه بالدخول عليه قبل ان يجتمع بالصحفيين ويلقي خطابه السياسي في المذياع .

هب الدكتور ابراهيم الى مكتب أمين عثمان باشا وكشف له عن حقيقة اللاجىء ثم عاد الى الاستاذ الطاهر وقاده الى مكتب أمين عثمان فقابله هذا بابتسامة لطيفة.. وقص عليه صاحب «الشورى» قصته بايجاز وما لبث أمين عثمان ان دخل على النحاس باشا وروى له ما وقع ... فقال النحاس : « أين هو الاستاذ الطاهر الان ؟» وهنا اقتحم الطاهر مكتب النحاس واحتضنه وقبله وهو يضحك مندهشا وقال لرفعته : « انني آت لاسلم نفسي الى الزعيم المجاهد لا الى رئيس الوزراء ، وأما اسلافك الذين كانوا على هذا الكرسي فكنت أفر منهم !» فرحب به النحاس باشا وطيب خاطره بكلمات رقيقة وطلب اليه التزام الهدوء ، وكلف أمين عثمان باشا الاتصال بالجهات المختصة وابلاغها ان النحاس باشا أطلق سراح الاستاذ

الطاهر وسيخرج الى بيته حرا طليقا ، وان اعترض خصومه على هذا الاجراء فقل لهم انني لا استطيع وضعه في السجن ، بل سآخذه الى بيتي فينام عندي وفي الصباح اجيء به معي الى رياسة الوزراء فيقضي سحابة يومه فيها ، وهكذا كل يوم ، فليختاروا احد الامرين !

ابلغ أمين عثمان الحاكمين من وراء الستار رغبة النحاس باشا فأسقط في أيديهم وعاد الاستاذ الطاهر الى عشه آمنا مطمئنا .

وفي شهر تموز ١٩٤٩ أصدر ابراهيم عبدالهادي باشا بوصفه رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام أمرا عسكريا باعتقال الاستاذ الطاهر وايداعه معتقل هاكستب البريطاني القائم في صحراء السويس . وفي ١٠ اغسطس ١٩٤٩ أصدر حسين سري باشا رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام امرا بالافراج عنه فغادر المعتقل واسلاكه الشائكة الى منزله بالقاهرة .

وفي شهر نيسان ١٩٥٥ غادر صاحب «الشورى» مصر الى بيروت بعد أن عاش في القاهرة ٤٠ عاما تخللها عذاب وجهاد وصراع مع الاستعمار واعوانه ، وسجون واعتقالات ونعمى وبؤس مع تنكر وتجهم من أقرب الناس واعزهم ومن أسواهم وأشرهم .

من آثاره القلمية :

١ ـ نظرات الشورى : ظهر هذا الكتاب في حزيران ١٩٣٢ في ٢٧٠ صفحة وهو فصول وملاحظات وخواطر عن العالم الاسلامي واحواله ومجريات الحالة في فلسطين في تلك الايام .

٢ ـ ذكرى الامير شكيب ارسلان : ظهر هذا الكتاب في تموز ١٩٤٧ في ٥٥٠ صفحة وهو يضم وصفا وفاة فقيد العرب الكبير وصداها في انحاء العالم العربي وحفلات التأبين في المشرق والمغرب وأقوال الصحف والمجلات ومراثي الكتاب والشعراء .

٣ ـ أوراق مجموعة : ظهر هذا الكتاب في نيسان ١٩٤٨ في ٥٢٠ صفحة وفيه يصف حالة فلسطين قبيل أن يتخلى « المنقذون » عنها وكيف كان أهلها يستبسلون في الدفاع عنها مع تصوير اجمالي لفظائع الانكليز وغدر اليهود .

٤ ـ معتقل هاكستب : ظهر هذا الكتاب في عام ١٩٥٠ في ٧٠٠ صفحة وهو يضم وصفا لاعتقال صاحب « الشوري » للمرة الثالثة مع اخبار واسرار نكبات الوطن العربي ونكبة فلسطين واسبابها .

٥ ـ ظلام السجن : ظهر هذا الكتاب في عام ١٩٥١ في ٩٠٠ وهو يضم مذكرات عن حياة السجن الذي كان فيه المؤلف عام ١٩٤٠ مع وصف حالة الهارب من السجون وبطش الظالمين من اجانب وعرب ونظرات في حالة العالم الاسلامي ودنيا العرب والاشارة الى المسؤولين عن النكبة الفلسطينية .

٢ ـ الشيخ فهمي هاشم

ولد في نابلس عام ١٨٩١ وأتم دراسته الابتدائية والاعدادية في المدارس الحكومية وفي عام ١٩٠٨ التحق بالازهر الشريف وكان شيخه عهد ذاك الشيخ سليم البشري ، وامضى فيه ست سنوات . ومن الاساتذة الذين درس عليهم الشيخ عبد المجيد سليم وزكي مبارك ومحمود خطاب وتوفيق الصعيدي ويوسف الدجوي .

وخلال دراسته في الازهر قرض الشعر واقتصر في منظومه على الدعابات والاخوانيات ، وقبيل الحرب العالمية الاولى عاد الى نابلس لقضاء العطلة الصيفية غير ان نشوب الحرب العالمية الكبرى حال دون عودته الى الازهر ليستكمل دراسته ، فدعي الى الجندية وانخرط في سلك الضباط وكانت دمشق مقر عمله .

وبعد خدمة قصيرة أحس بان العمل العسكري شاق ومضن فتوسل الى المسؤولين في الدائرة العسكرية بدمشق ليعود الى نابلس فاستجابوا لمطلبه وقصد مسقط رأسه وعين مدرسا في المدرسة الاعدادية وبذلك اعفي من الجندية .

وتلفت الشيخ فهمي الى طريقة تدريس اللغة العربية فوجدها قديمة العهد معقدة الاسلوب فسعى الى اصلاحها وادخال الطرق الحديثة اليها فكتب له النجاح وتخرج على يديه فوج كبير من مثقفي نابلس .

وفي نهاية الحرب العالمية الاولى فكر نفر من شبان نابلس الواعين بتأسيس مدرسة وطنية فكانت « مدرسة النجاح » التي نمت وترعرعت واصبحت اليوم « كلية النجاح » وفيها امضى الشيخ فهمي مدة عشر سنوات استاذا للعربية وادابها . وفي فترة عمله بـ « النجاح » عين استاذا للعربية في « دار المعلمين » بالقدس لكنه آثر البقاء في مسقط رأسه ليؤدي رسالته للعلم في صرح « النجاح » بوصفه مؤسسا ومدرسا .

الى الاردن : وفي أعقاب عام ١٩٢٨ قصد عمان عاصمة الاردن وعين استاذا للعربية في ثانويتها وامضى فيها سنتين وفي عام ١٩٣١ نقل الى سلك القضاء الشرعي وعين قاضيا شرعيا في مدينة الكرك وتنقل في عدة مدن اردنية . ولما كانت المحاكم الشرعية في ذلك العهد خلوا من مفتش يسهر على شؤونها سعى لدى المغفور له الامير عبدالله بن الحسين لاحداث وظيفة «مدير المحاكم الشرعية» فتحقق مطلبه وانتخب ليشغل هذا المركز .

وفي عام ١٩٤٥ شكل المرحوم سمير باشا الرفاعي الوزارة في الاردن فانتخب سماحته قاضيا للقضاة ووزيرا للمعارف . وفي عام ١٩٤٦ شكل المرحوم ابراهيم باشا هاشم الوزارة الاردنية فانتخب سماحته قاضيا للقضاة ووزيرا للمعارف ، وخلال استيزاره هذ طرأ تعديل اذ عين سماحته قاضيا للقضاة ووزيرا للعدلية وخلفه في

وزارة المعارف محمد باشا الشريقي.

وفي عام ١٩٤٧ – ١٩٤٨ استقال المرحوم ابراهيم باشا هاشم من رئاسة الوزراء فعين سماحة الشيخ فهمي وزيرا مفوضا ومندوبا فوق العادة لدى البلاط السعودي وامضى في عمله هذا قرابة عامين . ولخلاف طرأ بينه وبين المسؤولين في الاردن تخلى عن عمله السياسي هذا ولجأ الى القاهرة وأمضى فيها ١٥ عاما الى حين صدور قانون العفو العام (١٩٦٥) فعاد الى العاصمة الاردنية.

نموذج من شعره : خلال الحرب العالمية الاولى كان سماحته استاذا للعربية في اعدادية نابلس ، وذات يوم دعا « يوسف ضياء » متصرف المدينة الى تشكيل لجنة لمساعدة الفقراء والمحتاجين فألقى سماحته في تلك المناسبة قصيدة عامرة منها الابيات التالية :

هو الفقر ان انحى على من يحاربه ... فقد علقت فيه سريعا مخالبه
فويل لمن اضحى فريسة فقره ... مسالكه مسدودة ومساربه
اذا رام كسبا فيه بعض رجائه ... فهيهات شغل فيه تنمو مكاسبه
وان لزم البيت استغاث صغاره ... وقام اليه كل طفل يجاذبه
فهذا عليه البؤس في كل لحظة ... يلوح وهذا اصفر اللون شاحبه
وذاك ضعيف ليس يدري لجوعه ... أفي القلب نار ام هناك عقاربه ؟
افي الحق ان يهنا الغني بعيشه ... ويحرم رب الفقر والفقر طالبه ؟
افي الحق ان يطوي الفقير لياليا ... يموت ويحيا والهلاك يوائبه ؟
لقد هاج جيش الجوع في كل موطن ... وماج وحطت في البيوت ركائبه
واقبل يستل النفوس بقسوة ... فأين لنا قوم كرام تحاربه !
أجل قام فينا من ندين لشكره ... همام عظيم في البرية جانبه
وألف جمعا بات طوع بنانه ... ليدفع فقرا ليس تحصى كتائبه
فذاك ابي فيه نفس رحيمة ... وشهم كريم زينته مناقبه
لتهنا جموع البائسين ب «يوسف ... ضياء» المعالي فائضات مواهبه

ويوم كان سماحته يطلب العلم في مصر ، وهو في سن العشرين ، لقي في أحد شوارع القاهرة سيدة جميلة تغطي وجهها ب « اليشمك » ولها عينان سوداوان جارحة الاهداب ... فهتف من توه :

لما رأت ان العيون تقيدت ... بجمالها ودلالها اعجابا
اخذت من الصبح المضيء بياضه ... فكست به شفق الخدود نقابا !

وابان عمل سماحته استاذا للعربية في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس والعسف البريطاني يسود فلسطين القى سماحته قصيدة في حفلة قومية دعت اليها المدرسة ومن قوله :

اقسم الشرق لن يعيش مضاما ... وأباها الا الحياة مراما
زعم الغرب اننا قد ضعفنا ... وونينا تفرقا وانقساما !
كذب الغرب اننا قد نهضنا ... وجعلنا شعارنا الاعتزاما
كل يوم نرى من الغرب صنعا ... مؤلما يفيض فينا الوئاما
اترانا نهون او نتوانى ... بعد ضعف العداة عاما فعاما ؟!
ايها الشرق انت والله اعلى ... همة اذا ادرعت اهتماما
ايها الشرق لا ترع لعدو ... وتجلد ولا تكن نواما !

ولسماحته قصيدة عذبة الابيات يخاطب بها فتاة عربية اشجاها اختلاف قومها وتفسخ وحدتهم ، وتفرق كلمتهم ، ومن المؤسف ان هذه القصيدة فقدت من قمطر اوراقي لكن الذاكرة وعت هذه الابيات :

ضاق صدري ذات يوم واكتأب ... وعلاني منه هم ونصب
قلت : أمشي علني انفي الكرب ... واسري ما بنفسي من تعب
فتمشيت وهمي ما عزب

يا رعاها الله اوقات الصباح ... حيث اشجاني من الطير الصياح
وكؤوس الزهر اضحت في انفتاح ... وتبدى النشر منها والاقاح
باسما يفتر عن مثل الحبب

حملتني جهة الشرق القدم ... فبدا الاردن براق الديم
حوله الاعشاب ترنو من امم ... ومياه النهر كانت في هرب
.... (؟)

حان مني عند شاطيه التفات ... واذا بي ناظر ثم فتاة
ترسل العبرات اثر العبرات ... من عيون مضها بؤس الحياة
وهي خود ذات مجد وحسب

قلت : ما يبكيك يا ذات القناع ؟ ... ولماذا كل هذا الالتياع ؟
فاجابت بعد لأي وامتناع : ... ابكي مجدا كان للاباء ضاع
مجد قومي الغر سادات العرب

ابكي ما قد كان بالاندلس ... من مغان تفتدى بالانفس
ورياض كقدود ميس ... وعيون فاتنات نعس
..... (؟)

قلت لا تبكين يا بنت الكرام ... سيريك العرب افعالا عظام
ان قوما انت منهم لا يضام ... فعلينا النوم يا هذي حرام
او نعيدن مجدنا نحن العرب

فاطمئني ثم قري الاعينا ... يا فتاة العرب يا ذات السنا
سوف نحيي المجد في هذي الدنى ... . (؟)
ويرد العرب حقا مغتصب

عمان – الاردن

البدوي الملثم

الغرباء

هكذا قضي علينا
ان نهيم في مدينة الضجر
نتسكع فوق الارصفة البلهاء
يشلنا البوار والدوار
تمضغنا التفاهة ، يجترنا الكساد
ندحرج خطانا ، نجرها بلا هدف
نصافح الاخرين ، نحس بالصقيع
مات من قلوبنا الطموح
كأننا الدجاج ... نأوى مع المساء
همنا الطعام والشراب .
نملأ البطون ، بلا ارتواء
نشرب المحلى من المياه
بينما رغابنا مهيضة الجناح
تموت في الصدور ، ممعوسة الجباه
لعينة ، غريبة ، مجهولة النجار .

اللاذقية

عيسى فتوح

أيعود الى نفسي الانسان

... وتدق .. تدق على بابي
دقات ... في صمت الايام ،
في ليل حياتي تدهمني
وهناك بشباكي الاحزان ..
تتشابك .. من خلف القضبان !
والعمر معي ...
لا عمر معي !!
وحياتي .. لا أدري ..
أشجان ،
وتدق .. تدق وترعبني
وأحاول عبثا .. لا جدوى
وأحاول .. من طي النسيان ..
أن أفتح أجفان عيوني ..
أتململ .. في حضن الاحزان ،
وأعود .. كأني ..
لا عينان ...
لا ذكرى ..
لا لست بانسان !!
وتدق .. تدق وتفزعني
وأزيح بوهن يسحقني
وأحرك .. أغطية الماضي ..
أغطية .. كومها السجان !
وهبـاء ..
تضيع محاولتي ..
وكأن الدنيا .. هي صمتي
هي قطعة صلب .. أو ثلج ..
في قطب .. عافته الغربان !
وأنا أتجمد ..
قد جمدت اوصالي ..
من ماضي الازمان ،
واذا ما عادت لي الدقات
وبلحظة صحو .. أو لحظات
أتساءل ..
أتراني انسان !!
وتدق .. تدق بلا وجل
بأصابع قدر أعرفه ..
بأظافر قلق .. في تحنان !
وأكاد ألملم أطرافي
وأكاد .. أقوم الى بابي
في شوق يشمخ في الوجدان ،
اثقال تغضب .. تصفعني
تغمرني .. تقتل بي شوقي ..
وتطيح بحسي .. للنسيان !!
وتعود .. تدق بلا أمل
دقات .. تقطع أوصالي
وتذيب بأنفاسي الاحزان ،
لكن الوهن يهاجمني ..
وبأعماقي .. يتهددني ..
أحيـا ..
لا أحيا ..
في الازمان !
وتدق .. تدق بلا تعب
وأنا في الركن .. بزاويتي ..
مسلوب القوة .. والايمان ،
أخذتني .. أحداث الماضي ..
أخذتني مني .. أوهامي ..
من نفسي .. أخذتني الاشجان !
فبربك .. دق بلا ملل
فعساي أعود الى نفسي ..
ويعود الى نفسي .. الانسان !

للي كرنيك
رام الله ـ الاردن

قصة

بدلة العيد

بقلم احمد عابدين

اليوم هو العيد .. وللعيد التزامات كثيرة .. فاذا كنت ممن لهم اشقاء وشقيقات .. واقارب او بنات اعمام .. فعليك ان تبادر منذ فجر العيد (لتعيد) على هؤلاء واولئك .. ولا سيما (الولايا) والا عدوك بخيلا جاحدا .. وترحموا على والدك الذي كان يزورهن في كل عيد .. ولا يستبعد ان تنصب عليك بعض اللعنات لانك لا تصل (الرحم) الذي يجب ان يوصل ولا سيما في الاعياد ..

اما انا فاول شيء افعله فجر كل عيد ان اقوم بزيارة اقربائي وقريباتي اللواتي تربطني بهن صلة وثيقة .. وما اكاد انتهي من هذه الزيارات في القدس حتى اتجه الى عمان (لاعيد) على ابنة عم لي تقطن هناك .. ولا بد ان ازورها لألا تشعر – على حد قولها – انها (مقطوعة) من طرف اهلها .

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة عندما وصلت الى مكتب السيارات التي تتجه الى عمان . وكان الطقس حارا جدا في القدس وسيكون لافحا في الغور .. ولكن لا مانع لدي حتى اتم هذا الواجب. وجدت سيارة على اهبة التحرك فيها مقعدان شاغران الاول في المقعد الامامي بجانب السائق مباشرة والثاني وسط المقعد الخلفي . ومع اني اكره الركوب في هذين المقعدين لاسباب كثيرة اهمها اني (ادوخ) اذا ابتعدت عن نافذة السيارة وعن الهواء ، رغم ذلك اخترت المقعد الخلفي فهو اوسع من الامامي ..

وركبنا السيارة بعد ان تأخر قيامها حوالي ربع ساعة لم يأت خلالها اي راكب للمقعد الامامي الشاغر كما كان يتمنى صاحب المكتب ..

بدات اتفحص ركاب السيارة.. كانت تجلس في المقعد الامامي سيدة او انسة عانس .. هكذا بدت لي.. ولم اعرها اي اهتمام باديء الامر..

وعلى يميني جلس شاب في مثل سني كان يلبس بدلة جديدة متناسقة رمادية اللون .. تبدو وكأن انامل الخياط قد تركتها قبل ساعات قليلة .. وبدأت احدق في وجه الشاب فقد خيل الي ان هذا الوجه ليس غريبا عني .. وبدات ارجع الى سجلات ذاكرتي اقلب صور الذين كنت اعرفهم لاطبق احداها على الوجه الجالس بجانبي .. ويبدو انه لاحظ ذلك في نفس اللحظة التي تذكرته فيها .. اجل فقد كان احد زملائي في احد الصفوف الابتدائية منذ سنوات بعيدة .. فقلت ابراهيم.. وتذكرني هو بدوره .. وتصافحنا .. وكل عام وانتم بخير .. وكيف الصحة والاحوال .. وسألته عما يعمل فقال انه يعمل مدرسا في احدى القرى قرب القدس .. وتحدثنا حوالي عشر دقائق .. تخلل حديثنا بالطبع ذكريات المدرسة .. ثم انقطع الحديث ولم نجد شيئا نقوله .. ولاحظت ان اصابع النعاس تغمض جفنيه وان رأسه يميل الى اليمين ثم يغرق في سبات شبه عميق ..

كانت السيارة تنساب بسرعة كبيرة وهي تطوي الطريق وصوت الراديو يشدو بأغنيات العيد ..

ونظرت للراكب الى يساري .. كان شيخا طاعنا في السن ذا لحية بيضاء كثة جديدة التشذيب يلبس قمبازا جديدا ويلف رأسه بكوفية وعقال .. بدا منذ تحرك السيارة يبسمل ويحوقل ويتمتم بآيات من القرآن الكريم .. فلما نظرت اليه وجدته نائما يسبح في بحار الكرى.

اتجهت انظاري الى الامام .. الى السيدة او العانس .. كانت طويلة القامة .. تبلغ الاربعين من العمر رغم جميع الجهود التي بذلها خبراء التجميل في (تسوية) تضاريس وجهها لتبدو في سن اصغر .. وكانت تلبس ثوبا على درجة كبيرة من الاناقة . ورائحة عطر نفاذة حالمة تنطلق من رأسها وثوبها .. ذراعاها عاريتان حتى الكتف .. وبدت بشرتها بيضاء تسر الناظرين .. ربما كانت لها مسحة من جمال من عصور بعيدة .. اما الان فكل من يقول عنها جميلة هو شخص منافق .. وبدت لي انها ثرية فقد كانت تلبس خاتما من ذهب مرصع بفص من اللؤلؤ ولاحظت – بدهشة – انها تدخن بكثرة فما تكاد تلقي بعقب سيجارة حتى تشعل اخرى .. ولاحظت انها تتناول سجائرها من علبة امريكية – وهذا ما دعاني الى الاعتقاد انها ثرية – كما كانت تشعل سجائرها من ولاعة ثمينة ايضا ..

كانت تدخن بشراهة .. وتنفض رماد سجائرها من النافذة فيحمله الهواء الى وجهي والى وجه جاري النائم.. ويدخل بعض الرماد الساخن الى عيني .. واكاد اطلب منها ان تكف عن نفض السجائر من النافذة ولكني لا افعل ذلك .. ورحت احدق في شعرها الذي تتلاعب به الرياح فأصبح كعرف الديك يتطاير هنا وهناك وهي لاهية ما تكاد تلقي بعقب مصبوغ بأحمر الشفاه حتى تشعل سيجارة جديدة.

سئمت من النظر اليها وادرت

وجهي انظر الى ابراهيم فوجدته ما يزال يغط في النوم .. ونظرت الى بدلته الجديدة ورحت افكر ...

ابراهيم عبد الجبار .. مدرس في احدى القرى .. راتبه يبلغ العشرين دينارا او اكثر .. يعطي اهله عشرة دنانير ويحتفظ بالباقي مصروفا له .. منذ مدة طويلة لم يشتر بدلة جديدة .. كانت اخر بدلة اشتراها يوم عين مدرسا وقد استدان حتى استطاع ان يشتري تلك البدلة .. وقضى عدة شهور حتى سدد دينه .. اصبحت البدلة قديمة ولا تليق بمدرس .. لا سيما وقد اصبح له الان راتب ثابت لا بأس به .

كان ذلك قبل العيد بشهرين .. وقد قرر ان يشتري بدلة جديدة بالتقسيط طبعا .. فكل شيء اصبح يمكن شراؤه بالتقسيط من البدلة حتى التلفزيون .. كل ما يريده صاحب البضاعة (كفيلا) معروفا ثم احمل ما تريد من هذه المحلات التي تبيع بالتقسيط .. وليس بعيدا اليوم الذي سيصبح فيه الزواج بالتقسيط وعندها ستحل (عقد) كثير من العزاب والفتيات الذين بقوا دون زواج لضيق ذات اليد .. ربما .. من يعلم ..؟

وعندما قرر الاستاذ ابراهيم شراء البدلة الجديدة .. نزل مع ثلاثة من اصدقائه الى سوق مدينة القدس وبدأوا يدخلون تلك المحلات التي كتب عليها فلان الفلاني .. خياط وتاجر .. والتي تذكر في اعلاناتها (تسهيلات بالدفع) التي معناها بالعربي اننا نبيعك بالتقسيط.

بدا ابراهيم واصدقاؤه يترددون على هذه المحلات .. حتى يختار ابراهيم نوعا من القماش ولونا معينا .. وكان لكل واحد من الثلاثة رأي فيما يتعلق بالنوع واللون .. ودخلوا عدة محلات ليسمعوا نفس الكلمات من البائع..

كان كل بائع ممن دخلوا محلاتهم (يفرد) لهم عدة اثواب من القماش .. ثم يبدأ في القاء محاضرة عن تلك الاقمشة التي انزلها لهم .. « اسمع .. هل تريد نصيحتي .. هذا قماش انكليزي اصلي صوف مئة في المئة .. لا يكرمش ولا يكش .. كانت عندي عدة اثواب منه وبيعت كلها .. انظر .. انظر » ويعرضه بين يديه .. « او اسمع هل تريد هذا (كوبون) ممتاز والله العظيم هذا القماش يساوي اربعة دنانير اليارد .. » ويروح البائع يؤكد كلماته بأغلظ الايمان .. وربما بالطلاق احيانا حتى يصدقه الزبون الذي لا يبدو عليه التصديق .. حتى يبدو ان صاحب المحل نفسه لا يصدق هذا الكلام .. ويروح يضفي على البضاعة صفات كثيرة ربما لم يسمع بها الصانع نفسه ..

اكثر من اسبوع وهم يترددون على المحلات والقصة تتكرر حتى استقر الرأي على النوع واللون واختاروا اللون الرمادي (المونس) .. وبدات (الفصيلة) او المساومة تأخذ دورها .. وبدات ايمان البائع تنطلق عشرون دينارا طلبها البائع ثمنا للبدلة تدفع منها خمسة دنانير والباقي على اقساط شهرية يدفع منها ابراهيم كل شهر اربعة دنانير.. « لا هذا كثير .. لا ليس كثيرا .. والله العظيم ... » ويتركون المحل وينادي عليهم البائع .. وتعود المناقشة مرة اخرى حتى استقر السعر على ثمانية عشر دينارا يدفع منها خمسة دنانير ويقسط الباقي لتدفع على خمسة اشهر .. وتوقع (الكمبيالات) ويوقع الكفيل ...

متى ستنتهي البدلة .. ويقول البائع بعد اسبوعين .. تأتي يوم الخميس لاخذ (البروفا) والخميس الذي يليه ستتسلم البدلة ..ولكن الاسبوعين مددا الى شهر .. وفي كل مرة يأتي ابراهيم لاخذ البدلة يقول له البائع لا تؤاخذني .. انت تعلم هذا الشهر هو شهر العيد والشغل كثير وبعد عدة مرات يكاد ابراهيم يتشاجر مع الخياط .. واستلم البدلة قبل العيد بثلاثة ايام .. وجاء العيد ولبس ابراهيم البدلة وسار يختال بها وركب السيارة متجها الى عمان ...

كل ذلك جال بخاطري وانا انظر الى بدلة ابراهيم الجديدة وهو يحلم انه يتشاجر مع الخياط لان العيد قد جاء ولما تنته البدلة ..وعجلات السيارة تكاد تقفز عن الطريق من السرعة .. والعانس تشعل سيجارة بعد اخرى في عصبية ظاهرة .. والسائق يصغي الى فريد الاطرش المنطلق صوته من المذياع يقول يا ليل .. والهواء الساخن لا يزال يحمل رماد سجائر العانس .. و .. و

واشم رائحة شيء يحترق .. ريح به قتر .. ولكني لا اهتم لهذه الرائحة اول الامر ولكن الرائحة تزداد نفاذا وتغطي على رائحة العطر المنطلق من الامام .. ويبدو ان السيدة او العانس قد شمت الرائحة ايضا فقد بدات تبحث في ثوبها خشية ان يكون قد احترق من احدى سجائرها ... وتنتقل عدوى الشم الى السائق .. واقول له اوقف السيارة .. فأوقفها واستيقظ النيام .. وبدأنا نبحث عن الحريق .. ولم يطل بحثنا فقد اكتشفنا بعد ان نزلنا من السيارة ان جيب بدلة العيد قد احترق .. ولولا اننا اكتشفنا الجريمة لامتدت النار الى بقية البدلة .. وربما الى صاحبها .. وذهل المسكين وهو يرى بدلته بجيب محترق ومساحة كبيرة من الجيب قد استحالت الى رماد .. ونظرنا جميعنا الى العانس واصابع الاتهام تشير اليها بأنها السبب المباشر وغير المباشر لهذه المأساة المحرقة .. ونظرت السيدة الى الشاب الذاهل قائلة في صوت لا يبدو فيه الارتباك .. « انا آسفة

الشبح الصديق

وتيبست شفتاك وانهمر الحريق
من اين جمعتا « صديق »
سورت قلبك بالجحيم ولا طريق
حتى اذا حلم الفريق
ظلمت مرفاك الانيق
وجمعته من اين جمعتا « صديق »
تلك الشفاه الحمر وانهمر الحريق
وضحكت واخترعت شفاهك
ذلك الشبح الصديق
وتركتني طفلا اسير الوحدة
الريح تنتشج في صحارى غربتي
وعصرت كالدفلى ثمالة كرمتي
وأفقتني من دفء حلم عبقري
عانقتـــه
فيضا طفولي الخطا
ورداء نجم عنبري
وفطمت ما نسج الفرير وصدقا
املا نديا مشرقا
شوقا يتيم الامنيات
ليلم الحان الفؤاد العاثرات .
الله يا تلك الوعود !
خضراء رائعة البرود
خجلا تحصرم في الخدود
شلال اغنية وافقا كستنائي الحدود
انـا لـي صديق
ارجوك .. وانقطع الطريق

وسرقتها نملية الحركات تبسم كالندى
تلك اليـد
فانحل عقد اناملي
قلبي تحطم في يدي
اني أجاهد عري نفسي
في يدي
شبحا تكوم في زوايا معبد ..
وتبعثرت في افق وردي الفم
خصل الكلام
وحبا حديثك في دمي
انفاس مصدور يمزقها السعال
ريحا تئن من الشمال
غولا تسف بلا ضمير
قدرا يعري زهو طفل او امير
يا ذلك الشبح الصديق
يا ذلك الحب الصفيق
ومضيت في بحر الرياء تجدفين
عيناك عصفور سجين
الريح عاصفة تمزقت القلوع
الله ما اغلى الدروع !
لممت عريك في شريط من دموع
وصديقك المزعوم غالته البحار
فمن الذي تأتيك بالشهد المعتق والمحار؟
وقصائد الحب الكثار ؟
وسترقبين قدومه الوهمي
يا اي انتظار ! !

لندن   سامي حداد

جدا .. وانا على استعداد لدفع ثمن البدلة .. » واحرقت هذه العبارة دماغ ابراهيم بعد ان احرقت النار جيب بدلته ونظر اليها شذرا وود ان يكون امامه رجل حتى يحطم رأسه .. ولكنه قال لها بتهكم .. شكرا .. ثم التفت الى السائق قائلا .. « اتركني هنا .. لن اذهب الى عمان وسوف اعود الى القدس .. »

ولم تفلح جهودي وجهود الشيخ والسائق في ثنيه على قراره .. وتركناه تحت اشعة الشمس اللاهبة ينتظر سيارة تعود به الى القدس..

وانطلقت بنا السيارة الى عمان .. والشيخ بجانبي يتمتم .. لا حول ولا قوة الا بالله .. ناظرا الى العانس محركا رأسه يمينا وشمالا .. اما السائق فكان ينظر بطرف عينه الى السيدة ويبتسم .. اما هي فقد اغلقت النافذة وبدأت تنفض الرماد في المنفضة المثبتة امام السائق خشية ان تحرق بدلة اخرى ...

عمان ـ الاردن   احمد عابدين

ثماني شمعات

الى الشاعر الايطالي الكبير ديغو فاليري

Diego Valeri

(بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره)

بقلم عيسى الناعوري

•

في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني المنصرم اطفأ صديقي الشاعر الايطالي الكبير ديغو فاليري الشمعة الثمانين : فقد ولد في ٢٥ كانون الثاني ١٨٨٧ في قرية (بيوفي دي ساكو) .

وقد رأيت بهذه المناسبة ان يكون تكريمي له ثماني قصائد من شعره الجميل انقلها الى العربية ، واهديها اليه في شيخوخته ووحدته في مدينة البندقية ، بعد ان فقد رفيقة العمر منذ سنوات قليلة ، وبقي وحده مع خادمته وكلبه العزيز ، يؤنسان وحدته في غربة العمر .

عرفت فاليري لاول مرة في زيارتي الاولى للبندقية عام ١٩٦٠ ، في نهاية شهر تشرين الاول ، وكان قد احيل على التقاعد بعد عمر طويل سلخه في تدريس الفرنسية واللاتينية في جامعة بادوفا وغيرها . وتوثقت بيننا الصداقة ، واستمرت المراسلات ، حتى عدت الى زيارته مرة ثانية في شهر نيسان من العام الماضي ، حين دعيت لالقاء محاضرة بالايطالية في جامعة البندقية عن الحركة الادبية في الاردن . وكانت ترافقني في زيارته الاستاذة المستشرقة ماريا نللينو – ابنة المستشرق الكبير المرحوم كارلو الفونسو نللينو ، ورئيسة قسم الدراسات الشرقية في جامعة البندقية – وما ان دخلنا منزل الشاعر الشيخ حتى مضى الى غرفة اخرى ، وعاد مسرعا وبيده عدد قديم من مجلة (العربي) الكويتية كان لي فيه مقال عن الشاعر ، مع ترجمات قليلة من شعره . فقدم المجلة الى رفيقتي لكي تقرأ ما كتبته عنه فيها . وكان شديد السرور لان مجلة عربية راقية تهتم به وبشعره ، وتقدمه الى القراء العرب .

ليس فاليري شاعرا فحسب ، فله عدة مؤلفات نثرية ، منها كتاب أثير عنده جداً ، هو (يوميات عاطفية من البندقية) ، وله كذلك مترجمات عن الفرنسية والالمانية ، من بينها : (مدام بوفاري) و (شعراء ألمان) و (شعراء فرنسيون) ، وغيرها .

اما دواوينه الشعرية المطبوعة فهي :

١ – قصائد جديدة وقديمة
Poesie Vecchie E Nuove

٢ – خيالات بندقية
Fantasie Veneziane

٣ – الزمن الثالث
Terzo Tempo

٤ – الناي ذو القصبتين
Il Flauto a Due Canne

ثم اصدرت له دار موندا دوري في ميلانو مجموعة كاملة من شعره ، عام ١٩٦٢ ، بعنوان (قصائد – Poesie) . وتقع المجموعة في اكثر من ٤٠٠ صفحة ، مقسمة الى ثلاثة اقسام : الاول يشمل قصائد الشاعر المنظومة ما بين عام ١٩١٠ و ١٩٣٠ ، والثاني من ١٩٣٠ الى ١٩٥٠ – والثالث من ١٩٥٠ الى ١٩٦٠ . وفي هذا القسم الثالث جمعت قصائد الشاعر المنظومة بالفرنسية الى جانب القصائد الايطالية . ثم أضيف الى هذا القسم ملحق يشمل القصائد التي لم يسبق نشرها في كتاب ، وقد دعاها الشاعر (الايام الجديدة) ، وهي من منظوماته حتى نهاية عام ١٩٦١ .

وفي زيارتي للشاعر في شهر نيسان عام ١٩٦٦ اهدى الي نسخة من ديوان صغير له عنوانه (المساء – La Sera) – لعله يقصد به مساء العمر – يحتوي على اثنتي عشرة قصيدة غير منشورة في دواوينه السابقة . ولهذه المجموعة الصغيرة – وقد ظهرت عام ١٩٦٣ – مقدمة نقدية ضافية للناقد الايطالي الكبير كارلو بو . والناقد يستهل مقدمته هذه بقوله :

« هل هنالك وسيلة لتقديم الشكر لشاعر ما على ما يعطينا اياه ، وما يجعلنا نحسه ؟ لا ريب في هذا ، فكلما قرأنا شعرا ، واحسسنا بشيء مختلف داخل ارواحنا ، وكلما اتيح لنا ان نحبس انفاسنا ، محطمين سلسلة الاحداث العامة ، لكي نقول : « نعم ، هذا شعر » ، كان في اعترافنا هذا شيء من العرفان كذلك . اننا حينئذ نقول : « شكرا » بطبيعة الحال ، ازاء عمل خالص مقدم الينا .. »

ويختم الناقد مقدمته بقوله :

« أعرف عددا قليلا اخر من الشعراء الذين في وسعهم ، مثل فاليري ، أن يأخذوا دون عنف ، وان يقنعوك بان تدنو منهم دون ان يطلبوا اليك ذلك ، وبالتالي يدعونك تتحدث عن كلماتهم دون أن تلمسها ، او تفرط نظامها . وازاء هذا النظام عينه الذي لا يمكن تبديله في حلاوة الاحساس ، نشعر بأن علينا ان نجهر بشكرنا له ، ممجدين قصة قصائده » .

بعد هذه المقدمة القصيرة أقدم في ما يلي ثماني شمعات من شعره ، مترجمة الى العربية . وكلها من النوع العاطفي والوصفي الذي لا تختفي عبارته وراء ضباب الرمز ، ولا تضيع تحت الاصباغ والمساحيق الغريبة .

١ – الايام الجديدة
I Nuovi Giorni

ها هي شجيرة الربيع

بيضاء زغباء ، حلوة لامعة .
ومرة أخرى يخفق قلبي
كما يفعل كل مرة في عودة العام .
أي رجاء جديد ؟ اي ترقب ؟
ماذا ستحمل الايام الجديدة ؟
لا شيء . الا ان الطائر الكبير قد ظهر
أبيض مفاجئا في وسط الحقل
الاسود .

٢ ـ الوحدة
Solitudine

أيتها الوحدة القاسية الغالية ،
يا رفيقة أيامي المتأخرة ،
على مائدة الحشائش المرة
وخمر الذكريات العكر .
وحيدان نحن ، أنت وانا ،
غير ان مقامنا معا ليس مؤلما :
فان حلاوة نسيان وئيدة
ترش التراب لكي تخفي الماضي .
وفي الخارج تضحك سماء صافية
وتلمع أعشاب مروج غضة ،
وما يزال الامل مزهرا في الخضرة
على أغصان المستقبل .

٣ ـ الشباب الضنين
Avara Giovinezza

أيها الشباب الضنين ، انك تريد
كل شيء
لنفسك : الحياة التي تمضي من
حولك ،
وكل ما يلامس بصرك للحظة واحدة
فقط
انما يداعب احاسيسك أو يخزك .
والحب الذي يضحك لك
أو الحب الذي يبكي ،
يا طارد الظلال الباهرة العابرة ،
أن يديك ممتلئتان دائما ، فارغتان
دائما .
أما الشيخوخة التي لم تعد تريد
شيئا كثيرا
فتملك كل شيء . حتى الحب ،
وحتى الموت . انها تضع صدغها
الخافق
على كتف الحب البضة
والموت من فوقها
في غمامة نسيانه الكبيرة .

٤ ـ سنحمل الى الظل
Porteremo Nell'Ombra

الحب في الدنيا اكثر من الحياة
وشهوة الحب تظل تحرق
بعد ان ينطفىء موسم الحب .
سنحمل الى الظل ما لا حد له
من دموع القلب الذي سيظل يبحث
أبدا ،
عبر حجب الابدية السوداء ،
عن ذلك النور ، ذلك الوجه ،
الوجه الابيض
وجه الحب المحبوب الى الابد .

٥ ـ مسافة
Distanza

بعيدة هذه المسافة ، كتلال
اقامها نور المساء
على أقصى الافاق
وهي من الصفاء والحلاوة
بحيث لا تجرؤ على لمسها
شهوة الاحاسيس والحب .
كذلك هو بعدك عني .

٦ ـ تحية الصباح
Il Buongiorno

اقفزي من السرير ، واهرعي نحو
الماء الحي ،
اغسلي وجهك ، وبللي صدرك ،
ثم قفي لحظة دون حراك
لتشاهدي وجهك في المرآة بفضول .
هنيئا لك ، فأنت تجدين كل صباح
أمام ابتسامتك الرائعة تلك
عينين رماديتين ، وفما ورديا
تقدم لك تحية الصباح ...

٧ ـ الشمس الجميلة
Il Bel Sole

أيتها الشمس الجميلة الحزينة التي
تحس وتحمل فيها
الليل الطويل ، أيتها الشمس الاخيرة
الذائبة في هواء الصباح الابيض .
ما زالت ارضك خضراء ،
وما زال السياج والمرج اخضرين أيضا ،
وكذلك الرابية الحلوة بكرومها التي
تلامسها الحمرة .
الا ان فوق كل شيء
غباشة ناعمة من البعد ،
لانك بعيدة عنا
يا شمس حبنا . وها هو المساء
قد أصبح في قلب الصباح ،
ولن تلبث الظلال أن تجتاح سماءك
كلها .

٨ ـ هذا الدم المضطرب
Questo Inquieto Sangue

هذا الدم المضطرب
هذا التدفق الذي لا سلام معه ،
هذه الاخلاط التي تجري
في عروق النبتة الهرمة الرخوة ،
الى أين تهرب ، وعم تبحث
ان لم تبحث عنك يا سعادة الحب
سعادة الغبطة القديمة والالم القديم ،
الالم من الضحك القديم والبكاء ؟
القلب يخفق ، وكل نبضة صغيرة
تخفق في انتظار لا رجاء فيه .
أيها الحب ، انك لم تعد بعد ههنا ،
لم تعد من هذه الارض
انك تقيم في مكان آخر ، وزمان آخر
وفي حيوات أخرى غير هذه .

وقبل ان اختم هذه الترجمات ،
أود ان اذكر انني قد اخترتها كلها
من ديواني الشاعر الاخيرين : (الايام
الجديدة) و (المساء) . ويلاحظ
القارىء في سائر هذه القصائد كيف
انها تعبر عن حس الشيخوخة ،
وانطفاء العمر الطري ، وعن اللهفة
على أيام الشباب ، والحب . وهي
لهفة حارة عميقة ، ينقلها قلم مغموس
بدماء الروح المحبة للحياة ،
والحريصة على معاني الربيع ،
والوجوه الطرية التي تجد تحية
الصباح حلوة دافئة في مرايا الصباح

فليتقبل الشاعر الكبير هذه
الشمعات الثماني ، أشعلها هو من
قبل بأنفاس شعبه الذي يعتز به ،
وعادت اليه اليوم وفيها انفاس
شعب اخر ، ولسان اخر ، تحية له
بعد العقود الثمانية التي اطفأ
شمعاتها . رجاء ان يطفىء شمعات
اخرى عديدة ، ويقدم لاحبائه
أزاهير جديدة من حدائق شعره
الجميلة .

عمان ـ الاردن **عيسى الناعوري**



محمد رجب البيومي

شخصية السيد البكري

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

شخصية السيد البكري واضحة بارزة السمات ، فدارسه الناقد لا يبذل جهدا شاقا في استشفاف دخائلها ، واكتشاف طواياها ، ليبحث عن علة دخيلة او سبب غامض ، فليس الرجل من هؤلاء الذين يطالعونك بوجه صخري تتأمل صفحته الصماء فلا ترى بها منفذا لاستطلاع بصير ، فأحدهم كالبحر العميق يلفه الليل الدامس ، فأنت تقف على شاطئه لتتأمل السطح في ارهاق ، وهيهات أن تنفذ الى الغور في لجج متراكمة لا تدع بارقة من ضياء ! لقد كان السيد واضحا بارزا فيما يأتي ويدع ، ولم تكن له من وسائل الاحتيال واساليب الدهاء ما يعييك تفسيره ، ولعل هذا الوضوح البارز فيما يأتي من أفعاله واقواله ، قد كان احدى عوامل مأساته ! ولكنه السمة الاولى من سمات شخصيته على كل حال .

لقد ولد السيد بمنزل والده (سراي الخرنفش) وهي حينئذ مدينة في عاصمة ، تدل آثارها الماثلة أمامنا الان على عز حافل ، ونعيم طائل ، وسيادة عريقة ، فقد كان قصر حاكم البلاد عباس الاول جعله اجمل وافسح واكمل مبنى في عاصمة ملكه ثم انتقل الى السيد علي البكري والد السيد توفيق حين اضطرت مصلحة التنظيم ان تهدم منزله العامر بالازبكية ، فقدمه اسماعيل لشيخ مشايخ الطرق عوضا عن منزله ، هذا القصر العظيم بحجراته وابهائه وأثاثه وحديقته ! كان في حاجة الى عشرات الخدم ومأوى لمئات الاضياف من أعيان الدولة وجهائها ، زاره الخديوي اسماعيل عدة مرات ، وانعقد به مجلس الشورى أثناء أزمة الرقابة ، فخف اليه نواب الامة ووجهاؤها ورأس السيد علي البكري اجتماعهم في مظهر حافل أزعج القناصل ، وترك دويه الرنان ، وقد ولد به السيد توفيق ، وترعرع في نعيمه ليرى عظمة والده ومجده ! وليشاهد رئاسته الروحية تشمل آلاف المسلمين اذ يفدون الى رحابه يتلمسون نظرة حانية ويتمسحون في اعتابه ، يرتجون دعوة صالحة، وقد كانت الرئاسة الدينية حينئذ في الامة المصرية محل الرئاسة السياسية قبل ان تتضح نظم الحكم ، ويعرف الناس زعماء السياسة وأحزابها ، حتى ان ابراهيم المويلحي أشار على اسماعيل ان يهدد القناصل المتحرشين به بنفوذ السيد علي البكري في البلاد اذ انه الزعيم للآلاف (١) ! واشارة منه تشعل في الامة ثورة غاضبة ، ومهما كان هذا التهديد الذي أشار به المويلحي مبالغا في أمره ، اذ ليس للسيد – على جلالته – هذه القدرة النافذة في اشعال ثورة سياسية ، وهو رجل دين يعكف أتباعه على الاوراد والاذكار ويدعون السياسة لاربابها من الحكام ، أقول .. مهما كانت مبالغة هذا التهديد فان معنى اشارة المويلحي به ليدل على ان السيد علي البكري كان أقوى رجل في الامة وان نفوذه الروحي بعيد ! وقد كان مع ذلك لا يتدخل في الشئون السياسية الا بايعاز اسماعيل !

ولم تكد تمر السنوات الاولى من حياة السيد محمد توفيق حتى التحق بمدرسة الانجال ، ونظر فوجد نفسه يجلس مع ابناء خديوي مصر على مقعد واحد ، يتلقون جميعا مبادىء الدراسة في مدرسة واحدة ، فالاساتذة أساتذة الجميع ، والتلاميذ أبناء حكام الدولة ورؤسائها ، هذا الاحساس لدى السيد – وقد ولد اديبا شاعرا له خاطر الفنان وروحه – قد عظمت معانيه في نفسه ، واحس بوجوده احساسا عنيفا ، فولد لديه شعورا بالعظمة والاعتداد ، وقد صحبه هذا الشعور في دوره الهام على مسرح الحياة المصرية ، فكان باعث أفعاله وموجه تفكيره ، والمهيمن على كل تصرف يصدر عنه ، بحيث لو حكمنا بان مفتاح شخصية السيد هو الشعور العميق بالعظمة والاعتداد ! لم نكن مبالغين !

على ان الايام قد سمحت بما يقوى هذا الشعور ويضاعفه ، فلم يكد الناشيء المتطلع يخالط الناس ويجالس الاشياع والمريدين ويستمع الى اساتذته المختارين ، ويقرأ كتب المناقب والتاريخ ، حتى علم انه من اسرة ابي بكر الصديق ! وان هذه الاسرة العريقة قد تتابعت على القرون المتتالية بأفذاذ مشاهير من رجالات العلم والدين والرئاسة! كان لهم الصيت الجهير ، والاثر المدوى بل ان بعض هذه الكتب المنقبية تشير الى أن بيت الصديق هو بيت مصر الاوحد ، له الزعامة الكبرى في مصر على ممر العصور ، وقد صادف هذا القول السار من السيد قلبا طروبا

وصدرا منشرحا ، فاندفع يبحث عن تاريخ أجداده ويقرأ ما ترويه كتب المناقب مباهيا تياها ، ولم يكن ليقرأ هذه التراجم قراءة الناقد الذي يميز الواقع من المختلق ، وانما قرأها بروح المشغوف المولع بتسجيل كل محمدة سطرتها الاقلام ، ثم جمع كل ما يسره ان يعلم عن بيته العريق في كتابه (بيت الصديق) ولسنا الان بصدد الحكم على هذا الكتاب ، ولكننا نتخذ منه دلالة واضحة على سيطرة الشعور بالعظمة الكبيرة وتمكنه الركين من نفس السيد ! هذا الشعور الذي جعله يعتقد أنه خلق ليكون متبوعا لا تابعا ، ورئيسا لا مرؤسا ، عن هذا الشعور صدر وبه سار فصادق وعادى وحارب وحورب، حتى انتهى به السير المتصل الشاق الى الاعتزال!!

وكل متطلع الى المجادة النابهة، يتسم بسمات خلقية تجمع حوله الشيعة والاتباع ، فبعض الزعماء يعتمد في ذلك على الحلم وسعة الحيلة ، وطول المداورة ، ومراقبة الفرصة ، وبعد المرمى فيصل الى مايريد، ولو جاء السيد من هذا الباب لوفق كثيرا في طريقه الجهير ! ولكن السيد لم يكن ممن يميلون الى المداورة ومراقبة الفرصة باحساسه القلق ، وتعجله السريع ، لان طبيعته النفسية لا تساعد ذلك ، ولم يرزق من الكظم والمثابرة والكتمان ما يدع سره حبيسا بين اطوائه ، ولكنه يفصح عن ادق هواجسه لخلصائه ومشاوريه وفيهم من يخلص له عن اعتقاد، ومنهم من يبدي سنا ضاحكة عن ضمير حاقد ، ومن يضمر حسدا في ارتفاء وهذا الصنف من المرائين كان عامل نكبة السيد ، وباعث اخفاقه ، فهو يعاملهم معاملة الادنين من الاصفياء وهم يتربصون به الدوائر ، فيذيعون خوالجه الهامسة في عالم السرار الى حيث تجلب العنت والشقاء !!

كانت جناية هؤلاء المستشارين من ذوي السرائر المدخولة لا تقف عند حد ، فلم يكد يرجع الشاب المتطلع من الاستانة مباهيا بألقابه ونياشينه ومفاخرا بالوزارة العلمية التي لم ينلها اعلم العلماء وأسنهم في مصر ومنهم اساتذته واساتذة اساتذته ومشايخه ، حتى همس لبعض هؤلاء المنافقين الخادعين بأن عباسا لا يستطيع ان يظفر بالوزارة العلمية لشيخ الازهر على عظيم قدره وجلالة مرقاه ! ولم يكن السيد من البلاهة بحيث يذيع ذلك في حفل مجموع له الناس ، ولكنه فيما تدل القرائن قد باح بذلك لاخلص الخلصاء وادنى اللصقاء ، فاذا السر ينتقل الى اذن عباس ما بين العشية والضحى ! واذا السيد من صديقه وأميره وحاكمه في مأزق هائل يضطره الى الاستعفاء من نقابة الاشراف !

لو لم يكن الشعور بالعظمة الجليلة مسيطرا على السيد بسحره الخادع ، لراجع نفسه ، فأحس بالهوة التي توشك أن تتسع تحت قدميه ! ولنقب في حذق بصير عن دخائل أصدقائه ومستشاريه ، فاستعان بذكائه على تفهم السرائر واستكناه القلوب ، ثم أبعد عن حضرته من حامت حولهم شكوكه ، وبدأ في مستقبل دوره السياسي يتعظ بما كان فيعرف أن طريق المجادة الحقيقية صعب مستوعر ، وأن رئاسة الاقوام — لها صعداء مطلبها طويل — كما يقول الشاعر القديم ، ومن مطالبها الاكيدة كتمان الرغبات ، وتحفظ القول ، واستمالة النظراء ، ومن ألزم مطالبها قبل كل شيء معرفة العدو من الصديق ، ولكن هذا الحادث الجلل قد مر على السيد دون أن يتعظ به في شيء ! فمهد لغيره من الاحداث .

قد يكون السيد معتقدا في أطوائه أنه نظير عباس وأن الخديوي لا يرتفع عنه في شيء ، يدل على ذلك ما وجهه اليه من خطاب عنيف يوم المحمل حين صاح به : انا وزير مثلك ، ولاجدادي فضل على آبائك واجدادك ! كما سبق أن فصلنا ذلك في موضعه ! ولكن هذا الاعتقاد الشخصي شيء والواقع شيء آخر ، وطالب المجادة لا بد أن يرى الواقع الملموس بعينين نافذتين ، ثم يحكم خططه بما يناسب هذا الواقع الملموس ! لا بد أن تنطح الصخرة العاتية بقرنين واهيين !

ولئن كان هذا الشعور بالعظمة الجليلة قد اضر في معتركه السياسي فانه قد ابرز مكانه في المضمار الاجتماعي، حيث حتم عليه ان يكون فياض اليد بالعطاء ، تفد الوفود الكثيرة الى منزله العظيم ، فيجدون الكرم السابغ والوجه المنبسط والكف المغدقة ! حتى اصبحت سراي الخرنفش لعهد السيد توفيق البكري قبلة المتطلعين من الغرباء والاقرباء! فالحجرات مضيئة بالليل، آهلة بالنهار، والموائد تبسط عن سعة في مواعيدها المعلومة ، والابواب لا توصد أمام الطارقين ! هذا الى ما يصحب ذلك كله من مظهر ديني أخاذ حين ينفذ السيد وصية والده الراحل ، فيجعل جانبا فسيحا من سراياه خلوة نسك تحفل بالعلماء لقراءة البخاري وبالمقرئين لتلاوة القرآن ، وبأرباب الطرق، لاقامة الاذكار وقراءة البردة ، ثم لا يجيء المغرب حتى توزع الصدقات من وقف حبسه السيد علي البكري لهذا العمل الكبير (٢) .

هذا عن كرمه السابغ ، أما مظهره الشخصي فكان من الفخامة والجهارة بحيث يرضى طموحه البعيد ، فالرجال ينتصبون في الطرقات قياما عند مرور عربته ، والاكف ترتفع بالتحيات مع انحناء الرؤوس الخاشعة عند استقباله ، والايدي تلتمس البركات لدى التمسح بجبته، وفي رسالة حفني ناصف اليه ما يصور هذه الجلالة المهيبة حين يقول في عتابه « ولم نزل نعد اللحظات ونستطيل الاوقات ، حتى بزغت الأنوار وارتج صحن الدار، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار فقمنا باستقباله، وهنينا بكماله » أما رجال الصحافة والسياسة والادب فما اكثر تدافعهم الى السيد، وما ابهج حظوته بهم، واسعاده اياهم بروائع التحف والالطاف وقد قال الاستاذ محمد

كردعلي عن السيد في مذكراته (٣) «انه ادنى الى ان يكون امير مجلس من أن يكون رجل سياسة يجيد الفرنسية اجادة حسنة ويجمع بين معرفة القديم والحديث» فلو ضم الرجل الى كرمه ومظهره خبرة نفسية بعارفيه لكان رجلا غير الذي كان . .

ولم يكن شعور السيد بعظمته الجليلة في ميدان السياسة بأقل من شعوره بعظمته الخطيرة في ميدان الادب فقد وقر في نفسه أنه رأس في الشعر والنثر ، هذا الشعور بالعظمة الادبية ، قد وجدت له عوامل كثيرة، فأساتذته الاقربون من امثال حمزة فتح الله وأحمد مفتاح خاطبوه بمثل مليك اليراعات وقسور تلكم الغابات(٤)! واكبر شيخ للعلماء يقول عنه نادرة البيان وعلامة الزمان ! اما أصدقاؤه فقد أطربوه بما يروقه ، فهو خزانة الادب وحجة العرب عند الشيخ رشيد ! وهو كذلك عند عبدالله النديم وعلي يوسف ومع أن السيد لم يعرف في سلسلة آبائه وأجداده أديبا كبيرا يشار اليه بالبنان ، فقد سره أن تتمخض سلسلة النسب البكري عن نبوغه الادبي ، وأن يشعر بعظمته الادبية شعورا اكيدا جعله يرتضي نمطا من الاسلوب لا يحيد عنه ، ولا يحاول أن يتطور به مع الزمن وقد اجاد الفرنسية ورحل الى اوروبا فشاهد من اختلاف الموازين في الفكر والانشاء ما قد يدعوه الى النظر الفاحص في طرازه البياني ؟ ولكن حال دون ذلك تأكده من استيفائه شروط البلاغة العربية الاصيلة ، واحساسه القوي بأن أسلوبه الادبي من الروعة بحيث لا يتطرق اليه تبديل أو تعديل ! وقد وجد من أتباعه من زين له ذلك فصدقه عن يقين ، أقول ذلك مستندا الى هذا الدليل .

حين أراد السيد البكري طبع مجموعة من نثره وشعره وهي المعروفة بصهاريج اللؤلؤ قدمها الى عالمين لغويين يقومان بشرحها كما شرحت المقامات ورسالتا ابن زيدون في القديم ، فكتب أحد الشارحين وهو الشيخ احمد أمين الشنقيطي (٥) مقدمة حشدها بالثناء البالغ ، وقارئها يقف منها على ادراكه المحدود الضحل للادب ، وكنت أظن أن السيد البكري لا محالة قد فطن الى هذه المبالغة المفرطة لانه دارس قارىء بصير ، فمن المستبعد أن يعتد ما كتبه الشارح حكما من الاحكام الادبية الصائبة التي يستشهد بها في مجال الترجح ، ولكني رأيت السيد ينقل كلام الشارح الساذج في ترجمته لنفسه في كتاب بيت الصديق ص١٧ فيقول ما نصه :

« وقد قال فيه ـ كتاب صهاريج اللؤلؤ ـ عالم لغوي (بلاغة ترتفع عن مساجلة فضلاء هذا الزمان) ومناظرة أدباء العصر والاوان تلتحق بأشرف ما صنعه بلغاء الدولتين الاموية والعباسية ، وانفس ما وضعه فصحاء الفرقتين المشرقية والاندلسية ، (جرى الوادي فطم على القرى) ولا والله خشية أن أحمل على المغالاة ، أو التشيع والموالاة لقلت انه ما خط قلم من الاقلام ، منذ الف عام ، مثل هذا الكلام ، وهب انه وجد في متقدمي الشعراء من اتى بمثل هذا الشعر ، فأنى لنا من علية الكتاب من اتى بمثل هذا النثر ولو نظرنا فيما دونه البلغاء لالفينا أن من رزق اللفظ حرم المعنى ، ومن اجاد المفهوم لم يجد المبنى ، ومن احسن الشعر لم يحسن النثر، ومن اتفق لهم هذه الخصال حرموا قوة الخيال ، فلم يجتمع لاحد منهم ما اجتمع لهذا السيد الشريف من اركان البلاغة واصول هذه الصياغة » .

نقل السيد ذلك محبذا لا محالة ، ولولا سيطرة شعوره بالعظمة الادبية ما تناسى أن من المبالغة المفرطة أن يقول قائل ان ناثرا كالسيد لم ترزق به العربية منذ الف عام يندرج فيها اعلام النثر في القرنين الرابع والخامس على سطوع بيانهم الباهر وازدهار فنهم الساحر، ولكن خلق الاعتداد الكبير لدى السيد ، جعله يصدق كل ما يقال من أمداح ، ونحن نعرف أن مشاهير الادباء كانوا يسيئون الظن باحسانهم الادبي ، فيدفعهم ذلك الى محاولة الاستجادة ويشرئب بهم الى أرقى مما يبلغون ! ولكن اعتداد الرجل عاقه عن التجديد في مناحي القول متطلعا الى غايات اوفى وقد عرف عنه كثير من الانتهازيين هذا الخلق المعتد ، فكانوا يستغلونه لاشباع بطونهم وامتلاء ايديهم بتدبير ساذج يرضي السيد ويدفعه الى اجابة رغباتهم باذلا جاهه وماله ومنزله عن سماح واريحية ، ولم تقف الانتهازية المفرضة عند من يعرفونه من دراويش مصر واصحاب الطرق في الاقاليم والمراكز، بل انتقلت الى الغرباء الوافدين من اقطار الاسلام فهم يؤمون منزله عن غرض مقصود لا ليجدوا المأوى والمأكل من اريحي مسماح بل ليرجعوا بنفيس التحف وعزيز المال . وفد عليه ذات مساء شيخ مغربي ـ فيما حدثنا عنه بعض عارفيه من المعمرين ـ فمثل امامه في هيبة ، ولفت انظار الحضور بلهجته المغربية وزيه المراكشي ، وقال في لحن ناشز يشمل اللهجة واللغة والنحو موجها الخطاب الى السيد :

باراجيز يعرب وفحول البلاغة
وصهاريج لؤلؤ نلت اعلى المكانة

فاهتز السيد واختال وسأل المغربي في اعتداد : أوصلت هذه الكتب الى مراكش ؟ فقال الرجل : وحفظها الادباء وقرئت في المساجد والمدارس مع كتاب الله واقوال الصالحين ونهج البلاغة للامام علي ! فتهلل السيد وفسح لمخاطبه مكانا جواره وانزله بسراي الخرنفش عدة اشهر ثم منحه المال والملبس حين ارتحل مع عدة صحف تحمل مقالاته وكتبه لتذاع في المغرب على يد هذا الانتهازي الحصيف ، والبيتان السابقان من الركاكة والسخف بحيث لا يهش لنسجهما السيد البليغ ، ولكن اعتداده بصيته المدوي قد غفر لقائلهما ما بهما من اسفاف ، وهذا

يذكرنا بما حكاه السيد محمد كردعلي في مذكراته من ان السيد قد رغب اليه ان يمنحه عدة كتب من مؤلفاته لتقرأ في بلاد الشام (٦)

ان دراسة خلق الاعتداد الادبي في نفس السيد ، وتأكيد شعوره البالغ بعظمته البيانية ، يفسر لنا كثيرا من مواقف زملائه الادباء ازاءه ، اذ نقم عليه الكثيرون منهم هذا الشموخ الادبي في غير ما داع فاندفع حفني الى مكيدته التي اسلفنا الحديث عنها ، وارجف حافظ بأدبه وسيرته معا في مجالسه ، الخاصة والعامة ، ثم قال فيه شعرا ذاع فكدر السيد ، ونقل منه الاستاذ ابراهيم دسوقي اباظه بيتين في كتابه « وميض الادب في غيوم السياسة » (٧) ولا نحب ان نتورط هنا في تسجيلهما ، كما هاجم شاعر النيل مشيخةالطرق وشيخ السجادة في ليالي سطيح (٨) ، والسيد بعد من رهافة الحس وضيق الصدر بحيث برح به ما قيل ، فكابد منه اثقل العناء .

والى هذا الاعتداد الكبير لـــدى السيد بنبوغه الادبي ، نرجع في تفهم ما قاله السيد مصطفى لطفي المنفلوطي عن ادب البكري ، اذ عرف صاحب النظرات لديه هذا الشموخ المتعالي ، وكانت به ــ فيما اظن ــ اليه حاجة مالية كشفت عنها قصيدة عباس ، فاندفع الى الثناء على اسلوبه بافراط تنكره موازين المنفلوطي النقدية التي سجلها في مقدمة النظرات ، وحجتنا في ذلك ان المنفلوطي قال في شعر السيد اثناء عافيته ما تراجع عنه بعد اختلاطه فهو يقول اولا عن شعره بمجلة سركيس سبتمبر سنة ١٩٠٦ السنة الثانية :

« البكري شاعر مقل اقلالا يحسده عليه المكثرون ، فبيته مدينة ، ومدينته مملكة ، ومملكته الدنيا وما فيها من سعادة وهناء ، ولقد انقضى عصر بشار وابي نواس فما زلنا نطلب بعدهما ثالثا لهما بدويا فـــي اسلوبه ، حضريا في تصوراته فلا نكاد نرينه حتى وجدناه اليوم في شخص هذا الشاعر الجليل ، ولقد عابوا عليه ركونه الى استعمال الغريب من الفاظ اللغة العربية ولا ارى ذلك عيبا ، ما دام غرض الشعر احياء مـــوات اللغة ، وتذكير ما نسي ابناؤها فيها ، خصوصا في هذا العصر الذي ضاقت فيه دائرة الالفاظ العربيـــة بعد ان هجر ابناؤها اكثرها ، فضاقت عن حاجتهم واغراضهم فلجئوا الى اللغات العربية يستعيرون الفاظها لسد هذا النوع وربما كان فيما هجروه ما يفي بأكثر اغراضهم ومعانيهم العصرية لو حافظوا عليه ، واحسنـــوا القيام على ... وللسيد البكري قصيده بدويـــة في وصف الحـــروب العثمانية واليونانية فاذا قرأها القارىء طارت به على اجنحة الخيال حتى اوقفته في سوق عكاظ بين يدي زهير حتى يسمعها منه غير شاك ولا مرتاب » .

يقول المنفلوطي ذلك في السيد البكري بينما يقول عن البارودي : « شاعر ينسج على منوال غيره ويعدو ولكن في اثر من تقدمه من فحول الجاهليين والاسلاميين وهيهات ان يكون واحدا منهم فمـــن شـــاء ان يشاهـــد تمثيل رواية الشعر القديم فليطالع شعر البارودي ! »

ويقول عن احمد محرم : « ضاع شعره بين الآثار والديار ، والنؤى والاحجار فما زال ينبش عنه في الترب حتى وجده بعد لأي وقد صدأ معدنه فما ينتفع به بعد ذلك ! »

ونحن نقول ان الذي يرى في البارودي ومحرم هذين الرأيين يرى نظيرهمـــا في ادب البكـــري فكيف اختلفت النتيجة مع اتحاد المقدمات !! مهما يكن مـــن شيء فقد رجع المنفلوطي عن رأيه في شعر البكري فقال عنه بعد ان اعتزل السيد الحياةوالاحياء بلبنان ! «البكري شاعر فحل الا انك تراه في شعره ممثلا اكثر منه شاعرا فهو ينسج ولكن على منوال غيره ، ويعدو ولكن في اثر من تقدمه من فحول الشعراء الجاهليين والاسلاميين فمن شاء ان يشاهد تمثيل رواية الشعر القديم فليطالع شعر البكري (٩) » .

لعلنا اسهبنا بعض الشيء في التدليل على اثر الاعتداد الادبي لدى السيد في توجيه شخصيته ، فقد جعله يصدق كل مديح ! ويعتد نفسه اكبر راس فـــي الادب مما جر عليه من الصعاب ما اضيف الى محنتـــه السياسية ! فضاعت ثقته اخيرا فيمن حوله ، وراح يعتسف الطريق !!

نحن نعلم ان الشخص السوي هو الذي يوازي بين قدرته وآماله موازنة معقولة ، بحيث لا يبيح لنفسه ان يطمع في شيء بعيد قد لا تسمح به الاوضاع الطبيعية في الحياة ، فاذا امتدت احلامه الى ابعد مما توحي به قدراته فان ذلك مما يكدر حياته ، اذ يظل قلقا يترقب الغد في ضجر ، ويجيل فياطوائه حديثا كابيا يصـــور القنوط والحرمان ! واخال ان السيد لفرط اعتداده قد رسم لنفسه وضعا تتقاصر عنه امكانياته ، اذ اعتقد ان رئاسته تجوز مشيخة الطرق الى اخطر مراكز الدولة ، ومشيخة الطرق في ذاتها غير قليلة آنذاك ، فهي مكان القيادة الروحية للعامة في عصر كان يحفظ لها جلالها المرموق ، وهي التي هيأت صاحبها لعضويةمجلس شورى القوانين ، ووطأت له رتبة الوزارة العلمية التي تقـــدم

---

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر الجزء الثالث ابراهيم المويلحي ص ٦٦ . (٢) بيت الصديق ص ٤٣ . (٣) جـ١ ص ٣٤ . (٤) راجـــع الفصل الثاني . (٥) صاحب كتاب (الدرر اللوامع على همع الهوامع) وهو شرح مسهب لالف وخمسمائة بيت من الشواهد النحوية ، وهو حجة في علم العربية لا في ادبها . (٦) مذكرات كرد علي جـ١ ص ٣٤ . (٧) وميض الادب ص٩٧ . (٨) ليالي سطيح ص ٥٧ طبعة دارالهلال . (٩) مشاهير شعراء العصر ص ١٧٢ لاحمد عبيد . (١٠) مقدمة كتاب الساعات الاخيرة للاستاذ الطناحي بقلم العقاد ص ١٢ .

بها على شيخ الازهر في كل اجتماع ! ولكن السيد وقد كسب ذلك كله تطلع الى اكثر ما لا يملك ! وان قوله لعباس : انا وزير مثلك ، ولاجدادي فضل على اجدادك ينطق بما في نفسه من طموح ، وما يشتمل عليه من اعتداد كبير لا يرضى بالواقع الرسمي بل يمتد الى ابعد الاشواط ، وكانت حاشية السيد لا تضم بينها الناصح البصير الذي يحاول ان يقف بالرجل عند واقعه ، ولكنها تجمع طائفة من الوصوليين ممن يتفهمون نفوس الناس ويعملون على استمالتهم بترويج ما يشتهون ، وتحسين ما يبتغون ، بل ربما حوفوا الصغير وادنوا البعيد بتمويهاتهم الخادعة ، دون تحرج فقد اشبعوا رغبة الرجل بعد ان عرفوا اتجاهه فسايروه ، بل بسطوا له الحبل الى ابعد ما يتمنى ! حتى تجسم لديه فرط الاعتداد ، ولم يتبين حقائق عالمه في ضباب كثيف من زائف الاطراء ومعسول الحديث !

وكانت الخاتمة المتوقعة لما يصدر عن هذا الاعتداد ان ينظر السيد من حوله فيجد نفسه بعيدا عن مرضاة السلطان ، وبغيضا من عباس ، ومرجفا به عند كرومر! فلا يرجع بذلك الى خطأ تقديره ، وسريع تقلبه ، وقلق احتماله ، بل يرجعه الى شعور مرير بالاضطهاد وتجمع الناس على مناوءته ، والوقوف امام سيادته المشروعة ورئاسته الواجبة ! واذا كانت اعصابه قد اضطربت في عنف بعد مكيدة حفني ناصف ، فلم يكن هذا الالتياث عرضا مفاجئا كما توهم بعض الكاتبين ، وانما كان خاتمة صراع طويل تهاوت معاوله في نفس السيد طيلة سبعة عشر عاما قضاها على مسرح السياسة ، اذ كان من سوء حظه انه اعتقد عن يقين في باكورة ايامه انه المقدم المرموق على النظراء والامثال بل على الاساتذة والاشياخ حيث حاز اكبر درجة علمية يمنحها السلطان ! وأورثه هذا الاعتقاد المعتد المفاخر ضيقا كئيبا اخذ ينمو ويتكامل كما دار بعينيه فلم يجد كلمته تعلو الى الافق الابعد كما يريد ، وتحول الضيق في صدر الرجل الى صراع ينشب ويغلي حين يجد واقعه يتقاصر عن آماله ، وما يزال هذا الصراع يضخم حتى بلغ مبلغه من الحدة العنيفة بعد حادثة المحمل ، ومكيدة حفني ، فانفجرت اعصابه ، وظن الشر بالصديق والعدو ، وقال الناس ان الرجل قد التاث فجأة وما عرفوا ان نواة الصراع قد غرست منذ عهد بعيد ، وان التياث اليوم هو بذر الامس وان المأساة كلها ترجع الى شيئين هامين فرط الاعتداد في نفسه ، وخداع المشيرين من متملقيه ...

لقد سكت كبار الادباء لدينا عن تحليل مأساة السيد ، ولم نر منهم غير الاستاذ عباس محمود العقاد من يخصها بتشريحه ، اذ ارجع العلة الاصيلة في محنة الرجل الى ما سماه بوسواس الاضطهاد ثم عقد موازنة متكافئة بين مأساته ومأساة مي فكشف الستار عن كوامن مستترة وبواعث خفية كانت مدعاة المحنة لدى الاديبة الكبيرة والاديب الكبير ، وكان مما قاله العقاد عن السيد البكري (١٠)

« وفي حالة السيد توفيق جاءته الصدمة في ابان القلق وسوء الظن بالدنيا وبالناس ، جاوز الثلاثين منهوك الاعصاب ، مهدود البنية ، والقاه مركزه الاجتماعي بمعترك الازمات السياسية بين مصر ولندن والاستانة ، وحدث ان زائرا من اصحابه استدرجه حتى كتب له بخطه قصيدة في باب الغزل المحظور ووصلت هذه القصيدة الى المعتمد البريطاني فأغلق امامه الابواب في قصر الدوبارة ، كما اغلق الخديوي دونه ابواب عابدين ، وسبق الى ظنه انه مهدد في منصبه وسمعته ، بغير اطمئنان الى الحماية من احد ، فلما وقعت الصدمة علانية بينه وبين الامير خالطه الخوف من كل جانب ، وتوهم انه مقتول او مسموم او مغدور به على وجه من الوجوه لا محالة ثم انقلبت ازمة السن او ازمة الحرج الى داء عضال » .

وختم العقاد حديثه بقوله عن توفيق ومي معا :

« رأسان لامعان ، سرى منهما النور ، وسرت اليهما النار ... واحترقا بما اشتعل فيهما من ذكاء ، وقد سلما من الاضطهاد حقا ، ولم يسلما منه ظنا ووهما كأنما هذا الاضطهاد قسمة بالحق او بالباطل لكل عقل منير »!

هذا ما قاله الكاتب الكبير ! ولا يزال الموضوع في حاجة الى ان نقول تعقيبا على قوله « وقد سلما من الاضطهاد حقا ، ولم يسلما منه ظنا ووهما » ان المسألة بالنسبة للسيد البكري مما يتعذر معه السلامة من هذا الاضطهاد الموهوم ! لانه موهوم بالنسبة الينا لا بالنسبة اليه ، فالرجل حين تقاصرت الايام عن بلوغ آماله البعيدة قد شعر بخيبة الاخفاق شعورا قاسيا ، فلم يستطع ان يعدل رأيه في نفسه على ضوء تجاربه ومشاهداته ، ولكن فرط اعتداده بمكانه جعله يشعر ان آماله قد غصبت غصبا منه دون حق مشروع وان وراء ذلك مكيدة لا تني تفتل حبالها كل حين ، وان القصر من وراء هذه المكيدة عن يقين ثم تحققت مكيدة القصر بمؤامرة حفني ناصف فطار ما بقي من صواب السيد ، وتخيل شباكا اخرى تنصب للوقيعة به ثم لاغتياله ! واساس ذلك انه تخيل اولا شباكا نصبت للحيلولة بينه وبين امانيه ثم عزز هذا التخيل بحق واقع من مكيدة حفني ناصف فتلاحقت المكايد في عينه وتأكد انه يعيش على شفا جرف هار ! وهنا بلغ الصراع نهايته فتعدى طور الغليان المحتدم الى الانفجار الشديد .

رحمه الله ! لقد مهد له الحسب التليد كل راحة واطمئنان فسلبه الاعتداد البعيد ما مهد له الحسب التليد من راحة واطمئنان !

الفيوم ـ دار المعلمات **محمد رجب البيومي**

رسالة الى فتاة حقيرة

لا تطرقي بابي اذا أتى الربيع
أو خنقت مواسمي مخالب الصقيع
فلم يعد يعنيك ان دب المساء
في شاطىء .. أو أشرقت عرائس الضياء
معذرة .. أيتها البريئه !
يا أنت يا بائعة المشاعر الدنيئه
قصتنا .. أغنية ناشزة النغم
كئيبة الايقاع .. سرمدية الالم
ينخر في ألحانها الرتوب والسأم
قصتنا .. مهزلة مثلتها بألف وجه ،
وصبغتها بالف ألف لون
فلنسدل الستار عن مشهدها
ولنطفىء الضوء على مشاعر صرعى تسن
يا كم جعلت منك في خيالاتي أميره
في موكب الاحلام كم طفت بها كل جزيره
حاولت ان أدنيك من بروجي الكبيرة الكبيره
لكن سدى .. فان الف حائط يفصلنا ،
وألف باب
لان زورقي تحدى الموج والاعصار والضباب
ومبدأي .. مجذافه وسط العباب
ما حطم القيثار .. عازف سواك
ما دنس المحراب .. ملحد عداك
عيناك .. كان فيهما الخداع
ضراعة .. يحجبها القناع
ولهفة مسودة الشعاع
والطهر في وجهك كان يبتسم
والجوع في عينك نار تلتهم
وقلبك العقيم لم ينبت سوى الاشواك
زرعت فيه كرمتي فأجدبت يا حسرتي هناك
ها نحن في الظلام نخشى بأس ماضينا اللعين
وذكريات في الاسى مصلوبة الجبين
وألف معزف ينوح بالاسى وينزف الانين
وحدي هنا .. أنشد في ليلي مزامير الصباح
وحدي هنا .. ملقى على وسادة الجراح
أعتصر السلوان والعزاء
آكل جوعي في فراغ ما له انتهاء
والضوء .. ألف اصبع يفقأ عيني في المساء
يجرح جرح كبريائي في الخفاء
لكنني اهرب منه خلف معطف ممزق من الرياء
لا تسأليني الان عن حزني ووحدتي
فالخجل المسعور يفري مهجتي
وانت يا حمقاء أنت زلتي
لا تسألي : لم يبق لي غير الاسف
وحفنة من الدماء في السكون ترتجف
وصورة باهتة الظلال
أغمض عينيها الضلال
لا تطعمي حقدك من دمي
لن تخرسي النشيد في فمي
لن تطفىء وميض أنجمي
يا قبلة برصاء .. فوق عمري الوحيد
يا رعشة الثلوج في عروق زهري الشهيد
يا ومضة السراب في عيون ملاح شريد
يا جثة صفراء كم آويتها في مخدعي
قاتلها فر مع الدجى ولم يزل يحيا معي
عودي له .. عودي لحبك القديم
لوكرك المعفن السقيم
لا ترجعي : غوري مع الشيطان لا ندم
يا من زرعت في ضلوعي خنجر الالم
فانبتت مشاعري هذا النغم

القاهرة
وصفي صادق مينا

قصص وطرائف أندلسية

جمعها الدكتور فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

لم يترك اسلافنا صورا لانفسهم ولم يخلفوا تماثيل تعرفنا بهيئاتهم ولكنهم تركوا لنا خلاصة انفسهم في شعر جميل وخلفوا قصصا عن حياتهم ومجتمعاتهم واماكن تبسطهم . وفي هذه القصص وذاك الشعر يبدو الواحد منهم احيانا وكأنه يظهر لك من بين الكلمات واضح المعالم ويطل عليك من بين السطور او القوافي مكتمل الصورة والشخصية .

وقد جمعت بعضا من قصص الاندلس ذات التصوير الفني وهي اشبه بلقطات فوتوغرافية تسجلت قبل اختراع التصوير وقبل معرفة التسجيلات بأمد طويل وارجو ان تبعث في نفس القارىء ما بعثته في نفسي من طرب واستحسان شديد .

★ قال الحضرمي : اقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح . ففرحت به اشد الفرح فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة علي الى ان بلغ فوق حده ، فقلت له يا هذا ارني من يزيدني في هذا الكتاب حتى ابلغه الى ما لا يساوي . قال فأراني شخصا عليه لباسي رياسه . فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . قال ، فقال لي : لست بفقيه ولا ادري ما فيه ولكني اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه ، والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي فأحرجني وحملني على ان قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك ، يعطي الجوز لمن ليست له اسنان وانا الذي اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه.

وتظهر هذه القصة شدة اعتناء اهل قرطبة بخزائن الكتب حتى للمظاهر .

★ يروى عن المنذر بن سعيد البلوخي قاضي الجماعة بقرطبة ايام الناصر ان رجلا آذاه واهانه ، فخاطبه منذر بالكنية اي يا ابا فلان وهي من دلائل تعظيم المخاطب فقيل له ايوذيك وانت تخاطبه بالكنية فقال مرتجلا :

لا تعجبوا من انني كنيته ... من بعد ما قد سبنا واذانا
فالله قد كنى ابا لهب ... وما كناه الا خزية وهوانا

★ كان اهل قرطبة لا يقدمون احدا للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يكون ذا مال خوفا من ان يميل به الفقر الى الطمع فيما بأيدي الناس فيبيع به حقوق المظلومين . ويروى ان « الحكم » الربضي اراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة فأخذ في ذلك مع اعلام العلماء فقالوا له : هو اهل ولكنه شديد الفقر . فسكت « الحكم » وبقي مهموما . فسأله ولده عبد الرحمن الذي ولى الملك بعده فقال ما بالك يا مولاي فقال الا ترى لهؤلاء الذين نقدمهم وننوه عند الناس بمكانتهم حتى اذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شطط ولا مما هو يرزؤهم صدفونا عنه واغلقوا ابواب الشفاعة . فقال عبد الرحمن يا مولاي هؤلاء ما قدمتهم انت ولا نوهت بهم . وانما قدمهم ونوه بهم علمهم او كنت تأخذ قوما جهالا فتضعهم في تلك المواضع قال لا . قال : ولما كنت انت اولى الناس بالانصاف فقد انصفتهم فيما تعبوا فيه من علم قال . صدقت فقال عبد الرحمن : واما كونهم لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره فالعلة في ذلك تنحسهم بما يبقى لك من الصالحات ذكرا . قال وما هو قال تعطيه من مالك قدر ما يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك المنزلة فيزيل ذلك خجل ردهم لك وتكون هذه مكرمة منك محمودة . فتهلل وجه « الحكم » وقال : « الي الي انها والله شنشنة عبشمية وان الذي قال فينا لصادق » .

وابناء أملاك خضارم سادة ... صغيرهم عند الانام كبير

★ يروى ان الناصر احضر طبيبا لفصده وقعد لذلك بالبهو المشرف بأعلى الزهراء . ولما اخذ الطبيب الآلة ليقوم بالجراحة اطل زرزور وصعد على اناء من ذهب كان بالمجلس وراح يقول :

ايها الفاصد رفقا ... بامير المؤمنينا
انما تفصد عرقا ... فيه محيا العالمينا

وكان ان بعض نساء الخليفة ربت هذا الزرزور على حفظ هذا الشعر وفاجأت به الخليفة لتسعده به .

★ لما هرب عبد الرحمن الداخل من الشام الى افريقيا قاصدا الاندلس نزل عند شيخ من رؤساء البربر يدعى (ابا قرة) . فاستتر عنده وقتا فلما دخل الاندلس واستتب امره به سار اليه (ابو قرة) فأحسن اليه واكرم زوجته (تكفات) البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنده . فقال لها عبد الرحمن مداعبا حين استظلت بظله في الاندلس « لقد عذبتني بريح ابطيك يا (تكفات) على ما كان بي من الخوف وسطعتيني بانتن من ريح الجيف » . فكان جوابها له مسرعة : بل ذلك كله كان والله منك يا سيدي. خرج ولم تشعر به من فرط فزعك . فضحك عبد الرحمن واغضى عن جرأتها .

★ جرت مناظرة بين ابن حزم وابي الوليد الباجي. قال فيها الباجي : انا اعظم منك همة في طلب العلم لانك

طلبته وانت معان عليه تسهر بمشكاة من ذهب وطلبته انا ساهرا بقنديل بائت السوق . فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك لانك انما طلبت العلم وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي وانا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والاخرة » . فأفحمه .

★ كان ابن حيان يفتخر بالبخل ويقول : اوصيك بحفظ دراهمك وان يقال عنك بخيل لافضل من ان تحتاج الى السفل . ومن لطيف شعره :

لنا غرام شديد في هوى السود / نختارهن على بيض الطلا الفيد
لون به اغربت ابصارنا وحكى / في اللون والعرف نفح المسك والعود
لا شيء احسن من آس تركبه / في آبنوس ولا أشفى لمبرود
لاتهو بيضاء لون الجص واسم الى / سوداء حسناء لون الاعين السود
في جيدها غيد في قدها ميد / في خدها ميد من سادة صيد
من آل حام حمت قلبي بنار جوى / من هجرها وابتلت عيني بتسهيد

ومن شعره ايضا :

اذا مال الفتى للسود يوما / فلا رأي لديه ولا رشاد
اتهوى خنفساء كان زفتا / كسا جلدا لها وهو السواد
وما السوداء الا قدر فرن / وكانون وفحم او مداد
وما البيضاء الا الشمس لاحت / ينار العين فيها والفواد
سبيكة فضة حشيت بورد / يلذ السهد معها والرقاد
وبين البيض والسودان فرق / لدى عقل به اتضح المراد
وجوه المؤمنين بها ابيضاض / ووجه الكافرين به اسوداد

فأيهما كان ابن حيان يفضل : هل هي البيضاء ام السوداء .

★ كان ابن الزقاق الشاعر الاندلسي المشهور يسهر في الليل ويشتغل في الادب وكان ابوه فقيرا جدا فلامه وقال له : « نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه » . واتفق ان برع في الادب والعلم ونظم الشعر فقال مرة قصيدة في ابي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية فاطلق له ثلاثمائة دينار فجاء بها الى ابيه وهو جالس في حانوته مكب على صنعته فوضعها في حجرة وقال خذها فاشتر بها زيتا .

★ مدح شاعر احد الامراء بقصيدة مطلعها :

مولاي جاء الشتاء / والكيس منه خلاء

فقال الامير : هذا الضمير الذي في البيت الاول على ماذا يعود فقال بحسب مكارم الامير ، ان شاء على الدراهم وان شاء على الدنانير . فضحك وقال هات كيسك . فأخرج له كيسا كبيرا فملأه له وقال اظنه كان معدا عندك فقال : مثل الامير من يكون جوده مظنونا .

★ من احسن ما اثر عن (ابن شهيد) من كتابات نقدية حديثة عن وظائف بعض الاعضاء في القدرة الادبية وصلات الهيئة الانسانية بالملكة الفنية ووجود علامات عضوية تدل على عدم هذه الملكة او نقصانها . وفي ذلك يقول (ابن شهيد) في بعض ادعياء الفن من معلمي قرطبة: فهذه حال العصابة من المعلمين يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة وتقصيرهم بالآلة هو عن طريق العلل المفسدة للآلة القابلة للروحانية والخادمة لآلات الفهم الباعثة لرقيق الدم في الشريانات الى القلب . وزيادة غلظ اعصاب الدماغ ونقصانها عن القدر الطبيعي . ومما يعين على ذلك بالحدس وطريقة الفراسة عن فساد الآلة الظاهرة فرطحة الراس وتسفيطه ونتوء القمحدونة (مؤخر عظم الرأس المشرف على القفا) والتواء الشدق ، وخزر العين (ضيق العينين) وغلظ الانف وانزواء الارنبة .

★ شهد رجل عند القاضي فرد شهادته وقال بلغني ان جارية غنت فقلت لها احسنت ، فقال : أقلت ذلك حين ابتدأت ام حين سكتت قال حين سكتت . قال انما استحسنت سكوتها ايها القاضي . فقبل شهادته .

★ جلس الخليفة الناصر يوما مع بعض خاصته وفيهم الوزير ابن جهور والشاعر ابو القاسم لب . فأراد الخليفة ان يداعب جلساءه فطلب من الشاعر ان يهجو الوزير فامتنع خوفا على نفسه من سلطان الوزير فطلب من الوزير هجاء الشاعر فامتنع خوفا على عرضه من لسان الشاعر . فقال الناصر فأنا اهجوه وانشد :

لب ابو القاسم ذو لحية / طويلة في طولها ميل

ثم قال لابن جهور : لا بد من تذييل هذا البيت ودع الاعتذار فقال :

وعرضها ميلان ان قطعت / والعقل مأفون ومخبول
لو انه احتاج الى غسلها / لم يكفه ففي غسلها النيل

فضحك الناصر وقال للشاعر المهجو انه قد سبب لك القول . فأنشد :

قال امين الله في خلقه / لي لحية ازرى بها الطول
وابن جهير قال قول الذي / مأكله القرضيل والفول
لولا حيائي من امير الورى / نخسفت بالمنخس « شو » ...

ثم امسك الحديث ولم يتم البيت فقال الناصر مكملا البيت « كولو » . فقال الشاعر انت هجوته يا مولاي فضحك الناصر وامر له بصلة .

وتظهر هذه القصة معرفة العرب باللغة الاسبانية التي كانت سائدة في ذلك الحين فكلمة (شو) ترادف بالانكليزية « his » أي ضمير الملك للمفرد الغائب مثل الهاء في قولنا « كتابة » والثانية (كولو) معناها العجز او الردف . فهو يقول (نخست بالمنخس ردفه او عجزه)

★ جاء في نفح الطيب انه وجد بخط الناصر ايام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . ويوم كذا من كذا . وعدت تلك الايام فكانت اربعة عشر يوما فأعجب ايها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الاحوال لاوليائها . هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود . ملكها خمسين سنة وستة اشهر وثلاثة ايام ولم تصف له الا اربعة عشر يوما فسبحان ذي العزة القائمة والملكة الدائمة .

— ولعل لنا الى اخبار اسلافنا في الاندلس رجعة قريبة ان شاء الله .

لندن **فؤاد جبور حداد**



نسيم نصر

من ذكريات معلم

بقلم نسيم نصر

***

قلت في حديث سابق : « ان حمص كانت بالنسبة الي ، مختبر حياة ونزهة خاطر . » وهذه ذكرى حمصية تؤيد حقيقة هذا القول :

في اواخر العام المدرسي ، حزيران سنة ١٩٣١ دعاني اليه رئيس الكلية التي كنت فيها استاذ الترجمة والتعريب ، ومرشد ناديها الادبي ، وقال لي :

« هيء نفسك في هذا الصيف واعتمد ما تراه مساعدا من الكتب في الادب والنقد ، فقد اخترناك لتدريس الادب العربي ، في مطلع العام المدرسي المقبل . » ولما بدوت انني غير مطمئن لهذا الاختيار ، بادرني بقوله : « اسمع ، يا استاذ ، ان ذا القدرة على تدريس الادب العربي اليوم لا بد له من ان يكون احد اثنين ، لا ثالث لهما : احدهما عبقري له من اصالة الذكاء وحدة الفطنة وثاقب الفهم ما يؤهله ان يستحدث مناهج للبحث واساليب للنقد ، في جملة ما يستحدث ويبدع . وهذا العبقري قلما يرضى ان تحده مدرسة بجدارها وأجوائها، وانما يكون مدرسة في ما يؤلف وما يخطط ويرسم للاجيال الطالعة . » وثانيهما متتلمذ على ادب اجنبي تدرب على ذوي الاختصاص من اساتذة الآداب الغربية . وهذا المتدرب على اساليب النظر في الآثار الادبية وفقا لمناهج اعلام النقد والبحث ، في اللغة التي تعلمها من لغات الغرب ، لا بد له ، ان صح لسانه العربي ، وسلم ذوقه البياني ، من ان يصلح للاخذ بهذا الجديد الذي نحن آخذون به ، في لغتنا العربية ، وان يصبح معلما فيه بحكم الضرورة ، فكن هذا الثاني . »

وهكذا اريد لي وطلب مني ان اعلم ما لم اكن لاجرؤ أن ارشح نفسي لتدريسه . فكان علي ان اكون عند حسن الظن بي وان اتهيأ لهذه المهمة الجديدة . وعندما خلوت بذاتي لاتبين طريقي الى النجاح في ما انا مقبل عليه من جديد ، رأيتني كما قال صاحبي : املك مادة خاما تحتاج الى تصنيع لتأتلف في الهندسة التي اريدت لها . فرحت اغذي نهمي الى قراءة النصوص لاعلام العربية في مختلف عصورها ومواطنها ، معتمدا اساس كل بحث او نقد ادبي انعام النظر في القراءة المنهجية من خلال اطاريها الزمني والمكاني ، للخروج من كل ذلك بما يصلح ان يدعى الطابع الفني ، نسبيا ، لهذا او ذاك من الادباء أشاعرا كان أم ثائرا ؟

ويبدو ان حزيران سنة ١٩٣١ كان مفترق سبل في حياتي كمعلم ، فقد اريد لي في هذا الشهر وطلب مني ان اعلم الادب العربي . وها انذا في اواخر العام السادس والثلاثين ، من ذلك التاريخ ، ما ازال احج الى محراب الكلمة العربية اتدبر امر تدريسها بحرص البنوة البرة بالامومة الخيرة .

ومن احب الذكريات التي تعودني عن الادب ومجالسه في حمص ، ذكريات لبناني أديب اقام فيها حوالي ثلاث سنوات متفردا باستخفاء ندر ان احاط اديب اخر نفسه بمثله . وكانت معرفتي بهذا الاديب الشاعر اكتشافا لشخصية فيها كثير من المواهب المبدعة والانسانية الطيبة. ولكنها مواهب تعمل في ظل من مركب انساني نبا بصاحبه عن المجتمع نبوة فيها كثير من العطاء ، خلف براقع من الاسماء المستعارة ، واسمه الحقيقي فريد الابيض الحداد .

عرفته شاعرا تعانقت على أسلة يراعته الفصاحة العربية المسلسلة من اصفى منابعها ، والبلاغة المولدة في اقوى معطياتها ومراميها . وكنت احب ، من حين الى اخر ، ان اثير شاعريته ليفيض منها بفريدة من فرائده . وقد بعثت اليه في اوائل ايلول سنة ١٩٣٢ بقصيدة نظمتها في بلبل اخذته جريحا فوضعته في قفص واوليته عناية كبيرة . وهذا بعض تلك القصيدة :

قنص البلبل يوما صائد ... وانثنى مغتبطا مما قنص
اخذ الطائر عن اغصانه ... ورماه بين اعواد القفص
واتاه بالغذا في سجنه ... وعليه من اذى الهر حرص
اكثر الانسان من اكرامه ... واذا اكثرت من شيء نقص

وجم الطائر في محنته ... وتولاه بذا الاسر السقم
ورأى الاكرام امرا زائفا ... ورأى الاكل سموما لا دسم

مصرع الحب

لا تقولي .. لم يمت حبي أنـا ... أنت أخلفت عهـودا بيننـا
لا تقولي : انـت قلب حـائـر ... لـم يكن يومـا بحبي مؤمنـا
يا عذابي في الهوى .. لا تكذبي ... أينا قـد خـان عهـدا أينـا ؟
ما الذي أخلفته .. مـا دام لي ... كل عـين تجتلي فيك السنـا ؟
وامـانـي فـؤادي جمـة ... واليك تنتهي .. كـل المنـى
كل مـا تلقين بـي جارحة ... تشتهي منك الجنى.. حلو الجنى
أي حب .. غيـر حبي صادق ... أنما شاء القضا ، .ان يطعنـا
يـا عذابي .. لست بالحانق أن ... جرح الشوك .. وأدمى حبنـا
أنت انثى .. أن صفت عاطفـة ... وانطلاقا .. فهي تخشى الالسنا
أنت منـذ البدء .. حواء التي ... تزرع الشوك .. وتجني السوسنا
هو حظي فـي هواك .. عاثر ... مثل حظي .. ونصيبي في الدنا
ما احتيالي .. ان يكن ذنبي.. يد ... قصرت .. باعا وجافاها الفنى ؟
فاذهبي .. ان شئت عني زورقا ... نحو شط .. غير شطي قدرنـا
وأبعدي .. ما شئت عني موجة ... تقتفي موجـا .. عتيا أرعنـا
واتركيني غارقا فـي لجة .. ... زورقي الايام .. نعمى او ضنى
فلقد أبكـي أسى .. لكنمـا ... حسراتي للسنا .. لا للخنـا
المقاديـر أرادت .. أن أرى ... مصرع الحب .. الذي قد ضمنا
والمنـى كانت .. ورودا ولقـد ... تتهاوى .. كالازاهيـر المنـى

جدة ـ السعودية

مقبل العيسى

فانزوى يذكر عيشا غامرا ... في رياض ومروج واكم
هاجت الذكرى به اشجانه ... رب ذكرى ايقظت روح الالم

ولما كان شاعرنا بلبلا بشريا قضى عمره في قفص حاكه من قضبان عزلة فرضها على ذاته ، كان لا بد له ان يفلسف الحياة على السنة بلابل الطير . وهذه بعض مقاطع من قصيدة خاطبني فيها منكرا علي سجني البلبل الحر الجريح ، ومهيبا بالبلبل السجين ان يلقن الناس درسا في الحرية ، قال :

قانص البلبل في لهو الفرص ... رب قناص لها في ما قنص
انت تدري وطأة النير على ... عنق الحر تنزى أم رقص .
رقصة المكبول في أغلاله ... كبر يخفي به مر الغصص
أطلق الصداح من محبسه ... ما يطيق الحر حرا في قفص

يا مهيض الجانح الثاوي على ... مضض الاسر وتبريح السقم
ساقك الحسن الى القيد وكم ... عبثت بالحسن ، للحسن ، الذمم

انت اشقى من تلظى فبكى ... مصرع الحق بكفي من ظلم
غن للاحرار في اغلالهم ... أطرب الالحان الحان الالم

قل لهم : هذا دمي في جانحي ... نضحته دون حقي كبدي
يفضل الجرح تنزى دمه ... في مجال الذود صخب الزرد
كان لي أمس طروب وانقضى ... وانا من حاضري او من غدي
بلبل ابعث في اللحن أسى ... كلما مرت على جرحي يدي

ومثل هذا الشعر كثير في اوراق هذا الشاعر المغمور ، الذي لم يكن حظ مخلفه الشعري ، بعد ان مات سنة ١٩٥٨ بأفضل منه يوم كان الشاعر حيا ينحل قصائده هذا وذاك من الاصحاب ، ويوقع ما لم يهبه لاحد بتوقيع مستعار ايضا ، ولكن ادبه كالطيب لا بد له من ان يبوح بمخبئه .

نسيم نصر

قصة

ليل بلا قمر

بقلم خليل ابراهيم الفزيع

عندما تعانق العواطف المشبوبة الخيال .. ينطلق الى عوالمه اللانهائية في مسيرتـــه الظافرة دائما نحو التخفيف من ازمات ذاتية تعيش في داخـــل النفس .. فـــي اغوارها السحيقة جدا ، وعندمـــا لا يتاح للخيال ان يمحو ولو ببطء ما ترسب من ألم الفراق .. تصل الازمة الى ذروتها ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا بالنسبة لفاطمة التي لا زالت مستلقية على ظهرها ، فما لبث الامل ان بدأ يداعب ذهنها ، فسينتهي الفراق لا محالة . وغير بعيـد عنها استقر سراح شاحب الاضواء ، وكلما عبثت به نسمة هواء رقصت ظلال الاشياء على الجدران الطينية ذات الشقوق المتعرجة ، كأثار قلم يمسك به طفل صغير ، وفي غيـــر انتظام يخط خطوطا لا تعرف الاستقامة ، كانت تلك الشقوق ناتجة عن القدم الذي اصبح من مميـزات هذا الحي .

وحاولت فاطمة ان تنـام بعد ان رقدت المدينة في الظلام ، وغطت منازلها في نوم عميـق يلفه رداء الليل بالوحشة ، ولكن النوم يأبى ان يسلس لها القياد ، وتظل مستلقية على فراشها المتواضع تستلهم الاماني خروجا من ارقها ، ومن رأسهـــا آلام حادة ، وكأن هناك من يمسك بعدة مطارق ، ويهوي بها على رأسها دفعة واحـــدة ، ومع شدة هذه الآلام .. فان التفكير يسرح بهـــا بعيدا ، حتى انها تكاد تنسى نفسها ، ولكن آلام رأسها تشدها شدا الى هذه الغرفة الضيقة المسقوفة بجذوع النخيل والمليئـــة بمختلف الاثاث المحتمل وجوده في غرفة ضيقـــة كهذه الغرفة .. صندوق خشبي وفوقه قفة كبيرة فيها بعض الملابس القديمة . وغير بعيد عنها انتشرت بعض الاشياء ومن ضمنها بردعات حمير يستعين ببعضها بعض اخوتها للنوم عليها ليلا بينمـا يستعملها اخوها حمد لحميره نهارا ، وحمد .. هو الاخ الاكبر الذي يسير دفة هذا البيت الصغيـــر ، ويشرف عليه اشرافا حازما لا مجال فيه للاخـذ والرد ، وفي هذا البيت الصغير والمكون من ثلاث غرف بمدخل واحد .. تعيش مع امها واخويها الصغيرين ، اما اختها الكبيرة ، فقد تزوجت ، وخرجت مع زوجها من هذا القبو المظلم دائما نتيجة لكونه في نهاية ممـــر مسقوف يسمونه الساباط ويكثر في هذه المدينة العريقة ، اما هي فقد تزوجت ايضا ، وبدلا من ان ينقذها زوجها من هذا القبو ، ومن سطوة اخيها الذي لا يرحم .. تركها ورحل ، واليوم كان مفروضا ان يأتي من السفر ، فقد ارسل منذ ايام رسالة يخبرهم فيها انه سيحضر هذا اليوم .. ومنذ علمت بموعـد حضوره وهي تعد الثواني والدقائق لهذا اليوم الذي تتمنى الان انه لم يكن من عمر الزمن ، ففي هذا اليوم الذي كانت تتمنى ان يكون اسعـد ايامها ، حدث من اخيها حمد ما عكر صفو نفسها ، وها هو اليـوم يمضي دون ان يأتي زوجها ، وحسنا فعل ، فلو اتى وهي على هذه الحالة لراعه ما آلت اليه حالها نتيجة خطأ موهوم لم ترتكبه . لك الله يا حمد .. ما كان اغناك ان ترتكب هذا الخطأ في حق اختك ، ومدت يدها تتحسس الخرقة البالية التي عصبت بها رأسها ، وآلمها ان تجد من اخيها كل هذه القسوة بلا مبرر ، كانت آلام رأسها وآلام نفسها من الاسباب الكافية لطرد النـوم من الجفون ، ونسيت لفترة زوجها لتتذكر احداث هذا اليوم المشئوم ، فقد استيقظت باكرا كالعادة ، وبعد ان انهت غسل اواني الطبـخ وتنظيف البيت ، تناولت الجردلين لتجلب الماء مـن العين الجوفية ، وكغيرها من فتيات الاسر الفقيرة ، كان عليها ان تجلب الماء يوميا من عـين جوفية يردها سكان الحارة يستقون منها ، ولكنهم عندما يسقط دلو العين فيها ، او عندما يسقط ايضـا قط او كلب فيها ، فان عملية اخراجه تستغرق وقتا لا يجدون خلاله بدا من الذهاب الى عين تخص حارة اخرى ، اما من كان حاله افضل فان ذلـك لا يهمه لانه يملك عينا جوفية خاصة ، ومثل هذه الاسر لا يمكن ان تسمح لغيرها بارتياد هذه العين ، الا في حالات خاصة جدا ، ومن لم يعجبه ذلك فلينطح الجدار .

احيانا تتساءل فاطمة : لماذا لا يجلب الرجال الماء ، لان عملية اخراج الماء بواسطة الدلاء الكبيرة والرشاء الغليظة ، هذه العملية .. متعبـة جدا ، ولا تقل عنها تعبا عملية نقل الماء في جردلين كبيرين الى البيت الغير قريب من العين ، فكيف اذا كان الامر يستمر اكثر من مرة في الصباح واكثر من مرة في المساء ، وفي كل مرة لا بد من تفريغ الجردلين في الجرار او في اواني الماء الفخارية الكبيرة التي لا تنقل .. وكان امامها مرة واحدة حتى تنتهي من جلـب الماء ، ووقفت مع الواقفات تنتظر دورها .. كان قلبها يكاد يطير من الفرح ، فستنتهي من هذا العمل الشاق ، وتخلو الى نفسها لتتذوق وترتدي افضل ملابسها استعدادا لاستقباله في اية لحظـة ، كانت تبدو ككتلة سوداء لا يميزها شيء

دعوة

دعاني فلم لا ألبي نداه ... ولم لا اكون رفيق هواه
أما كنت دوما أغار عليه ... وأهفو اليه وأحيا رؤاه
أقاسمه خلجات الضلوع ... وتعبث بي أمنيات لقاه
ويشركني همسات ظنوني ... ويعتبني مغرقا في رضاه
ولكن برغم حقوقي بحب ... ه أخشى الملام ومن قد رعاه
وأخشى شعورا يلم بقلبي ... يعذب حبي ويوهي عراه
أجل قد دعاني اليه هواه ... وعمري لا يقتضيني سواه
واني سأرعى هواه مشوبا ... بكل الخطايا بما قد عراه

دمشق — **سلافة العامري**

عن غيرها من النسوة اللواتي يغشين هذا المكان ، وجاء دورها ، وملأت بالماء جردليها ، وحملتهما كل واحد بيد ، ولما كانت المسافة غير قصيرة بين البيت والعين ، فقد كان طبيعيا ان تتوقف اكثر من مرة لتستريح ، ثم تستأنف السير بعد ذلك ، ولما اشرفت على السباط ، تدخلت ذبابة مشؤومة لتقلب مشاعرها رأسا على عقب ، فقد كانت هذه الذبابة تتخبط في اضطراب على وجهها ، وقد منعها الحجاب السميك من الخروج ، فلم تجد فاطمة بدا من التوقف ، لطرد هذه الذبابة المتطفلة ، وازاحت حجابها قليلا لتترك لهذه الذبابة فرصة الخروج ، وفي تلك اللحظة بالذات كان حمد يخرج من البيت ، فرآها شبه سافرة ، وبسرعة عادت لتستر ما انكشف من وجهها ، وعندما مر بها كان غاضبا ، فلم يرد عليها عندما قالت : صباح الخير ..

فكاد قلبها ينخلع من الفزع ، فعندما يغضب حمد ، فان هذا يعني اشياء كثيرة . وبسرعة .. حملت الجردلين ، ودخلت البيت لتفرغهما في الجرار ، ولكنه عاد ، ووجدها قد انتهت من ملء جرة ، وبدون ان يتكلم ، تناول الجرة ، ورفعها ليهوي بها بكل قواه على رأس فاطمة .. فترنحت لهول الضربة ، ثم سقطت دون ان تنبس بكلمة ، واندفعت الدماء غزيرة من رأسها ، واسرعت امها تولول عندما رات ابنتها على هذه الحال ، وتجمع الجيران ، واستطاعوا ان يسدوا الجرح الفائر في رأسها ، ويوقفوا نزيف الدماء الطاهرة البريئة ، وكان حمد قد خرج بعد ان قال :

ــ انها لا تستحي .. كيف تجرؤ على كشف وجهها خارج البيت .

وعندما بدات تعي ، كانت آلام الدنيا كلها قد تجمعت في رأسها ، فابتلعت الحزن ، ولم تقل شيئا رغم انها سمعت لفظ بعض العجائز اللواتي اجمعن على ان (هذا جزاء من لا تستحي) . ومضى اليوم مملا كريها يزيده ترقب وصول الغائب توترا ، وحتى هذه الساعة لم يصل ، وازداد ألم الرأس والم النفس زيادة لا تطاق . فامتدت يدها لتطمر بالظلام بركة النور الصغيرة عندما كتمت انفاس السراج .

وفي الهدوء .. كان هناك صوت لم تميزه في البداية ، فأصاخت السمع ، فاذا صوت طرقات خفيفة على الباب الرئيسي للبيت ، فازداد وجيب قلبها ، ونسيت آلامها وتساءلت : من يكون القادم في مثل هذا الوقت ؟ لعله هو . بعد سنتين من الغياب يصل ، وتصل معه الراحة ويصل معه الحب .

والح الطارق في طرقه ، ولكن دون كلام ، وكان الخوف والفرح والحيرة تتنازع مشاعرها ، فقامت واقتربت من الباب لتهمس : من الطارق ؟

ــ انا ..

ــ من انت ؟

ــ زوجك يا فاطمة .. افتحي الباب ..

انه هو .. صوته الدافىء .. حنانه الحار . ساعداه القويان ، وتعانقا في الظلام ، وامتدت يده لتتخلل اصابعه شعرها الليلي ، فاصطدمت بالخرقة التي ربطت راسها بها ، واحست في صوته اللهفة وهو يسأل : ــ ما هذا ؟

ــ جرح ..

ــ ما سببه ؟

ــ حمد .. حطم الجرة فوق راسي ..

ولم يسأل لماذا .. بل اكتفى بأن مرر يده على الجرح ، واحست بعدها ان آلامه قد زالت ، وعاد الامن والسلام الى نفسها ، وقالت بهمس : ــ دعني اوقظ امي ..

ــ لا داعي لازعاجها .. سأنام في السباط حتى الصباح .

ــ لن تنام في السباط . المكان واسع ، هيا نم معي .

وشدته من يده بحذر ، وترك ما معه في الدهليز الضيق ، وهي تتحسس الطريق ، وهو وراءها .. حتى اذا وصلا الى فراشها .. احست بيد تهزها وصوت يقول :

ــ فاطمة .. استيقظي .. لقد تأخرت اليوم كثيرا .

كان الصوت هو صوت امها وهي توقظها من نومها الذي لا تعرف متى بدأ ، وعادت الآلام من جديد تنهش رأسها .

السعودية — خليل ابراهيم الفزيع

مكتبة الاديب

لمع مشرقية

مجموعة شعرية ـ امين البرت الريحاني ـ ؟ صفحة ـ منشورات دار الريحاني ببيروت ـ مطابع الريحاني ببيروت

ما أحلاك لعمك الريحاني الكبير سميا ، وما اجدرك بعهده وفيا ، ولادبه وليا ، وعلى تراثه الرائع وصيا ، وبتعاليمه حفيا ، ولرسالته العربية تليا هديا ، ومن كوثره شاربا رويا ، وما ابرك اذ نراك تخفر ذمته ، وتخطو خطوته ، وتسلك سيرته وهديته ، وتزرع في القلوب حبته ، وتصرخ صرخته ، وتعصر خمرته ، وتسكر سكرته...

اتراني مغاليا اذا قلت انك مرشح لخلافة عمك الريحاني الكبير ؟ ام تراني وضعت على عاتقك تبعة ينوء بحملها الظهر والظهير ؟ ام تراك تقول : من هو هذا المفتون الذي يسول له الغرور، ان يجلس على كرسي الريحاني امين ؟

لا ازعم ان وشائج القربى الدموية تؤهلك وحدها للجلوس على كرسي عمك العظيم ، ولكن هناك ايضا مواهب الفكر والروح والقلب والافق الفسيح الوضاء ، فاذا اقترنت تلك الوشائج بهذه المواهب في عزم ومضاء ، فلا بد ان يرتفع البناء ، ويطاد صعدا في العلاء .

ولست كما تعلم ممن يطلقون كلامهم جزافا ، ولا ممن يغررون بالاخرين خفافا ، ولا ممن يرسلون كيل المديح طفافا ، ولا ممن يرعون مع الاساد خرافا ، لا ، لست واحدا من هؤلاء ، ولكني ممن يحذرون وأد المواهب ، وممن يحرصون على الكشف عن المواهب السوائب ، المهملات الضائعات في مطاوي الغياهب ، او المنصرفات عن المشارق الى المغارب .

وهذه المحاذرة ، وهذا الحرص هما اللذان يحدواني الى توجيه كلمتي اليك بعدما اطلت علينا باكورتك الادبية « لمع مشرقية » وقد التمعت فيها اواصر من نسب الفكر والقلب والروح الذي يصلك بعمك الامين ، فما ان طالعناها حتى قلنا : اننا امام موهبة تتجنح، والمعية تتفتح ، وعين تتحلب وتترشح ، وكلمة تترجح ، فماذا لو ان هذه الكلمة استقرت ، وهذه العين تبجست ، وهذه الموهبة تسددت وانطلقت ، وهذه الالمعية تسعرت وانصهرت ، الا نشهد عندئذ ولادة الانسان المنشود ؟ ولا شك انك ادركت يا عزيزي ما ارمي اليه .. فهلا كنته ؟

ولنتحدث عن باكورتك « لمع مشرقية » فلا شك انها من حيث الفكر والخيال والصور والايحاء والتجربة وانفعالات النفس ونبضات القلب ، والكنايات والاستعارات والرمزية واختيار الالفاظ ، اقول ان لمعك المشرقية تحمل من هذا القبيل ، اخصب المعاني الشعرية ، هذا امر لا شك فيه ولا جدال ، فانت شاعر بالفطرة ، بارع في اقتناص المعاني وسبكها بجزالة ، اما من حيث الطابع والاسلوب والصيغة والجرس الموسيقي ، والشعر كما نفهمه نغم وموسيقى وايقاع وتناسق اصوات ، فقصائدك بعيدة كل البعد عن المفهوم العربي للشعر . ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا وصفنا هذا (الشعر الجديد) المستورد من وراء البحار (مادة خامية) تفتقر الى صائغ وملحن ..

ونراك في مقدمة (اللمع) قد تنبهت لهذا الامر واحتطت له ، وكانك شعرت بان المقياس العربي للشعر لا يعترف بسوى القصيدة المنظومة اي العمود الشعري ، فدافعت عن (القصيدة المنثورة) وقلت (انه غير مجد تحديد شكل معين للشعر وجعل اطاره شرطا من شروط وجوده) وكانت الحجة (رب بيت موزون مقفى لا تجد فيه اثرا للشعر ، ورب قصيدة منثورة تنقلك الى عالم السفر ، الى دنيا نفسك على دروب الرؤى الشعرية المعلية ، والعكس بالعكس فالشعر لا يحدد بشكل) .

والصحيح اننا عندما نعثر على ابيات موزونة مقفاة دون ان نلقى فيها اثرا للانطلاقات الشعرية ، فنحن لا نصفها بشعر ، كما اننا نجرد ناظمها من الشاعرية ونعلن صراحة انه نظام وزان لا اكثر ولا اقل ، باعتبار ان العناصر الشعرية الموسيقية مفقودة ، والبون بعد هذا شاسع بين الشاعر والنظام ، فالحجة اذن مننها فتة لا يؤخذ بها اذ ان السر ليس في الميزان وحده ، بل في ما نضع في كفة الميزان ايضا ..

غير اننا لم نستغرب دفاعك عن (القصيدة المنثورة) وحصر الشاعرية فيها دون الموزونة المقفاة ، فقد كان رائدنا عمك الريحاني الكبير في طليعة من تنكروا للعمود الشعري ، فهاجمه بشدة في (هتاف الاودية) واتهمه بالعجز عن تادية المعاني وبالتكلف والتعمل والتصنع بحجة ان الوزن والقافية يمنعان عن الشاعر الحركة والانطلاق ، ولذلك يؤثر الطريق الاوسع والاسهل ، وكان له في الشاعر الاميركاني وايتمان الموجه والملقن والموحي ، فقد استهواه باسلوبه وبراعة تصويره وتفكيره الخيالي الفلسفي العميق ، ولم يلبث ان سلك سبيله واخذ يجاريه في اسلوبه وهديته فاتحف العربية بتجارب شعرية رائعة ذات معنى فلسفي مسبوكة في قوالب خيالية رمزية ، ولعله اول من دشن (القصيدة المنثورة) في الادب العربي الحديث ولكن تحفة الريحاني الشعرية ، على جلالها ، فقدت عنصرا من عناصرها الرئيسية وهو النغم والحركة الموسيقية وتآلف الاصوات والايقاع ، وقديما وحديثا قال العرب (انشد الشاعر قصيدته) وهذا يعني ان الشعر اناشيد تنشد ، ولنا في اغاريد البلبل واساجيع الحمامة مثل طبيعي حي ، كما ان لنا في الزجل العامي وهو موزون مقفى آية بليغة ، فهل نقول ان البلبل متعمل والشاعر العربي متكلف ، والزجال متصنع ، بل ماذا نقول لو ان الزجال اللبناني مثلا لجا الى التجديد وساق زجله نثرا ؟

ثم ان الريحاني النابغة ترجم الى الانكليزية رباعيات فيلسوف المعرة ذات الروتين في القافية الواحدة ، ولولا انها ملكت عليه ذهنه واستبدت بفكره لما عني بها ولما كلف نفسه عناء ترجمتها ، فهل رأى فيها تعملا وتكلفا ، وهل ضاق الوزن والقافية المزدوجة الروي عن استيعاب التجارب العميقة والصور البارعة والمعاني الدقيقة التي جالت في خاطر (رهين المحبسين) .

اما التجديد الذي ينادي به (المجددون) الذين يعيبون على فنون الادب العربي اشياء كثيرة ، فمعناه في عرفنا صبوة في النفس الى الابداع ، ومعناه الاتيان بالافضل والاجمل والاكمل ، ومعناه التوليد والابتكار ، ومعناه الاصالة ، والاصالة تستنكر الدخيل والنقيل فهل جاء (تجديدهم) ابداعيا أصيلا ام جاء تقليدا دخيلا ؟

ثم ان بحور الشعر العربي ليست جامدة ضيقة محدودة ، كما يتوهم اولئك الذين يستعصي عليهم النظم ، والحقيقة انها بطواعيتها واصولها الموسيقية التي لا تحصى مشتقاتها ، تتسع اشد الاتساع

للتوليد والابتكار . ولنا من فن الموشحات الذي وضعه شعراؤنا الاندلسيون اجلى دليل وانصع برهان على ما يتفجر في بحور الشعر العربي من طاقة مولدة وحركات موسيقية متدفقة وهذا يعني ان الشعر العربي القائم على الموسيقى وتآلف الاصوات انما يفتقر الى شيء واحد ، وهو العبقرية المولدة .

ومما يؤثر عن « العقاد » الجبار ، رحمه الله ، مغالاته في تعصبه على الشعر المنثور ، فكان وهو مقرر لجنة الشعر في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، اذا عرضوا على اللجنة شيئا من الشعر المنثور هز رأسه استخفافا وامر باحالة هذا الشعر الى لجنة النثر لتنظر فيه ..

مع هذا لسنا من المتزمتين الذين يحنطون الحرف او الذين تجمد اللفظة في افواههم وعلى اقلامهم بل نجنحها ونلونها لتنطلق في دورانها حول المعنى الاوسع والافق الارحب الارفع ، مع هذا لا نستطيع ان نسمي الاشياء بغير اسمائها . وكما جاز لك يا صديقنا (الامين) ان تشرح نظرتك ورأيك ، جاز لنا ان نبسط رأينا ومذهبنا في سبك الشعر ، وهذا لا يعني حوارا او نقاشا وانما هو تعريف وتحديد .

ولننتقل بعد هذا الى « اللمع المشرقية » نحن لا ننكر انها منبثقة عن روح شعرية اصيلة ، فقد دلتنا على انك قناص ماهر في اصطياد المعاني والخواطر والخلجات والانطباعات والصور المتبرجة بتهاويل الالوان ، يقودك اليها خيال خصب مخضوضل متغدن ، فنلقى في همساتك التي جاشت فيها صبابتك ووجدك واشواقك ، صرخات متاججة ، وابتهالات متارجة ، ونجاوى متبلجة وزفرات معندلة متموجة في طيوف مكوكبة متتوجة .

اما الموضوعات فهي ثلاثية العبر ، فهناك (عبر الانا) انا ، من انا ، ما هو كنه هذا المجهول الرهيب الذي حل في اعماقنا ، وكان سر كياننا ، ما هو ماهية وكيفية وآنية واينية وسائر ما يتبعها من اصول ومصادر ومشتقات ، وقد عالج الشاعر هذا (الانا) معالجة رومنسية وجدانية شعرية ، لا معالجة فلسفية . مع ان الفكرة الفلسفية هي قوام الشعر المنثور في نظر واضعيه الغربيين ، ولا شك في ان الفكرة الفلسفية التي تعتمد الرمزية والمجاز والاستعارة هي المبرر الوحيد لبروز هذا الاسلوب من الشعر . وهذه الفكرة الفلسفية يجب ان تكتنه تفسيرا جديدا لمعاني الحياة والوجود وما يتعلق بهما، ينقض ما تواضعت عليه المعاني الشائعة فنقضوا اول ما نقضوا الاوزان والقوافي المألوفة ...

ويتلو عبر الانا (عبر شعبي) وقد استمد الشاعر جذوره من البيئة الطبيعية والاجتماعية والتاريخية والمجال متسع كل الاتساع للتفني والتعبد والتمجد ، فللطبيعة في لبنان جمال ساحر يخترق الابصار ويشمل القلوب فتخشع امامه النفوس ، ويرتفع الفكر الى عالم الاسرار والغيوب ، الى عالم الرؤى والوحي ، والاستشفاف ، فترى البصيرة ما تعجز عن رؤيته العين ، وينصب الالهام على النفس الحساسة انصباب الغيث .. فاذا وصفوا لبنان بالجبل الملهم فهم على حق في هذا الوصف ، ولهذا رأينا اللبنانيين عامة والشعراء خاصة ، يتغنون بلبنان ويتغزلون بجماله الطبيعي الفتان ، ولكن هذا التغني قلما جاوز المحسوس ، باستثناء جبران خليل جبران ونزر معدود .

واذا انتقلنا الى العبر الثالث وقفنا على (عبر المجاز) وقد طرق الشاعر موضوعات متصلة الاهداف والمعاني والاساليب بعبر الانا وشعبي وان اختلفت لونا واريجا ووترا واوغلت في المجاز .

وعلى كل حال ، فقد اجتاز الشاعر في تجربته الشعرية الاولى التي تمثلت في باكورته الادبية شوطا بعيدا في ميدان الاغاريد الشعرية المنثورة .

ولنتحدث قليلا عن الناحية اللغوية ، فقد لفت نظرنا بنوع خاص اهتمام الشاعر بوضع الحركات على معظم الالفاظ ، غير ان هذه العناية المشكورة تحملنا على استدراك بعض الاخطاء اللغوية من باب العناية بسلامة اللغة التي عني بها الشاعر الملهم نفسه .

ففي مطلع القصيدة الاولى « ضجيج في اعماقي » نطالع هذين (المصراعين) كم تقلقني الكلمة ، وكم ترعش افراسي : والافراس اي الخيل جمع فرس يطلق على الذكر والانثى ولا ندري ما هو رمزها ، ولعل الشاعر اراد (فرائصي) بدليل المعنى . وفي القصيدة نفسها (احدق) بتشديد الدال بالاشياء حولي والصواب : احدق الى الاشياء بمعنى انظر . اما حدق الثلاثية واحدق وحدق به (بتشديد الدال) فمعناه اطاف واحاط به . وقد تكررت تعدية (حدق به) المشددة في اماكن اخرى .

وفي القصيدة الثانية « رشق الحجارة » يبتدىء الشاعر بواو العطف (واعود من جزيرتي عبر البحار البعيدة) ولا ندري كيف ياتي العطف حيث لا معطوف عليه . وحيث تعجز القرينة عن الاستدلال بما يجب ان يسبق واو العطف او ماذا يجول في خاطر واضعها . والابتداء بواو العطف ليس بدعة اطلقها شاعرنا ، فقد سبقه اليها كثرة من الشعراء والكتاب الذين يشوفهم الابتداء بالواو ، وهي لفظة تنيف معانيها على العشرة ، ولعلهم يظنونها للابتداء والتنبيه ، ويتحذلق بعضهم فيضعون ثلاث نقاط قبل الواو ، كأن هناك حديثا لا يهم القارىء او يفهمه القارىء .

ونقرأ في القصيدة نفسها هاتين الفقرتين (فاجمع الوقود ، واشعلها لهيبا) بضم الواو في (وقود) وهي في هذا الشكل مصدر وقد ، ومراد الشاعر هو المادة التي توقد اللهيب والنار وهي الوقاد والوقيد والوقود بفتح الواو ، ثم ان اللفظة مفرد مذكر فلا يصح ان يقال (واشعل لهيبا) بل (لهيبه) .

ونطالع في قصيدة (مهلا اخي) هذا السطر (واسمع تنهدات بعيدة) بجر بعيدة والصواب فتحها لانها صفة للتنهدات المنصوبة بالمفعولية ، وبما انها جمع مؤنث سالم فنصبها بالخفض كما قرر النحويون وهذا الحكم لا يشمل (بعيدة) ونقرأ في مكان اخر هذا السطر (اكاد ارى في صوتك طارقا يلح) بفتح ياء المضارع . والصواب ضم الياء لان لح الثلاثية تعني لصق . نقول لحت القرابة بيننا اي لصقت ومنها قولهم (ابن عمي لحا) اي لاصق النسب . ولحت العين أي لصقت اجفانها بالرمض . والبون شاسع بين لح الثلاثية والح اي واظب والحف وهو المقصود . ثم ان الطارق يسمع صوته ولكنه لا يرى . وليس لنا ان ناخذ بالمجاز في هذه الحالة فنعبر عن سماع صوت الطارق برؤيته .

ونقع في قصيدة « كنيستي العتيقة » على هذا السطر (تدلك طريق الخشوع) بفتحة على القاف ودل تتعدى بعلى والى في مفعولها الثاني .

ونلقي في نشيد « فاح حبي » هذا السطر (واخر نفس من انفاسي) بسكون فاء نفس والصواب فتح الفاء . وفي « حلمي الاخضر » نقرأ هذا الشطر (نلقي براسينا في جزع صنوبرة) والصواب جذع بالذال وهو ساق الشجرة ، ثم ان القاء الراس يجب ان يكون على الجذع لا فوقه . وورد في مطلع نشيد « حروفي » هذا الاستهلال (بضعة حروف شدت الى بعضها) والصواب بضعة احرف لان (بضع) تعني القلة من ثلاثة الى تسعة . وحروف جمع كثرة ، وجاء في النشيد نفسه قول الشاعر (ساشقعك ثانية) وشقع اي حمل من الالفاظ العامية الشائعة في لبنان ، هذه واحدة واخرى ان شكل (سأقشعك) جاء غريبا اذ وضعت كسرة تحت الشين فتعذر لفظها ، ولا شك انه خطأ مطبعي ، ومثل هذا الخطأ ورد ايضا في (تطلع الى فوق) اذ جاء (ولا يبقى سوى تطلع الى فوق بضمتين

على تطلع والصواب الجر) .

ويختم الشاعر نشيده « غضب » بهذه العبارة (طالما الشمس مطعونة بالسهام) وطالما انما تدخل على الفعل الماضي فنقول طالما رحبت بزيد ، والمقصود ما دامت ، وجاء في مطلع قصيدة « في الديجور » وتسقط الشمس غرقى في اعماق نفسي ـ وغرقى جمع غرق وزان ثمل وغارق وغريق ، والشمس مفرد مؤنث ، وكان عليه ان يقول (غارقة) .

ونلقى في نشيد « حلمنا الرحلة » هذا المصراع ، بخيوط تكاد لا ترى ـ والصواب لا تكاد ترى . وفي النشيد نفسه هذا الشطر : لتسوح الدنيا عينانا ـ وساح اي ذهب في الارض وجال مضارعها يسيح ، كما انها تتعدى بفي لا بنفسها ، وقد تكررت (يسوح) في قصيدة ـ صعب الخجل ـ

واستعمل الشاعر لفظة (تؤرجحها) في نشيد الصمت والافق وكأنها مشتقة من الارجوحة ، وهذا من اخطاء الجرائد ، والصواب ارتجح اي مال في الارجوحة يمينا ويسارا . ثم ان هذا الفعل لازم لا يأخذ مفعولا ونقع في قصيدة « قائد » على هذه العبارة (قم وانهض لدنياك استفيق وانظر كيف اليك تتوق) والصحيح استفق فعل امر من استفاق وقد حذفت الياء منعا لالتقاء الساكنين . ونقرأ في قصيدة « راشانا » (للعشق راشانا) بضمة على عين العشق ، وكنا نحصيها في باب الاخطاء المطبعية ، لولا ان هذه الضمة تكررت مرة ثانية في القصيدة نفسها ، والصواب وضع الكسرة بدل الضمة والعامة انفسهم يلفظونها بالكسر فضلا عن معاجم اللغة وورد في نشيد « يا شاعري » هذا المقطع : (قم وانتفض من موجع وارمي بطرفك في الافق البعيد) ولعل اثبات الياء في (ارمي) وهو فعل امر من رمى خطأ مطبعي .

ونحن اذا كنا قد اتينا على ذكر هذه الاخطاء ، فلاننا لقينا في شاعر اللمع المشرقية موهبة خصبة تلفت انتباه النقاد ، والتعبير الفكري السليم يقوم على سلامة اللغة الى جانب الموهبة . ولو سكتنا عنها لاسأنا الى الشاعر ونفينا عن انفسنا الاخلاص صداقة وادبا ومسلكا ومبدأ ، ثم ان في التنبيه على الاغلاط اللغوية حافزا يدفعه الى تجنبها في ثماره الادبية القابلة التي نامل ان يكون لها شأن حفيل في دنيا الادب . فباكورة ثماره تبشرنا بمستقبل باهر هو جدير به اذا حقق ودقق ورجع الى كتب اللغة في ضبط الالفاظ والجري على القواعد .

ولولا اننا صادقناه واحببناه واستبشرنا بمواهبه كما احببنا قبله والده الالمعي الجليل ، وكما احببنا قبلهما واعجبنا برسول الحرية والعروبة امين الريحاني الكبير الذي لم نعرفه عيانا ، بل خبرا وفكرا وكتابا ، نقول لولا اننا احببناه وتوسمنا فيه المواهب الذهنية والخلقية لما كلفنا النفس نقد باكورته الادبية مقرونا بالتنبيه والتشديد والتشجيع ، فالطريق مفتوحة امامه ، والمستقبل الفنى الباهر الزاهر يبسط له ذراعيه مرحبا محتفيا ...

نظير زيتون — حمص ـ سورية

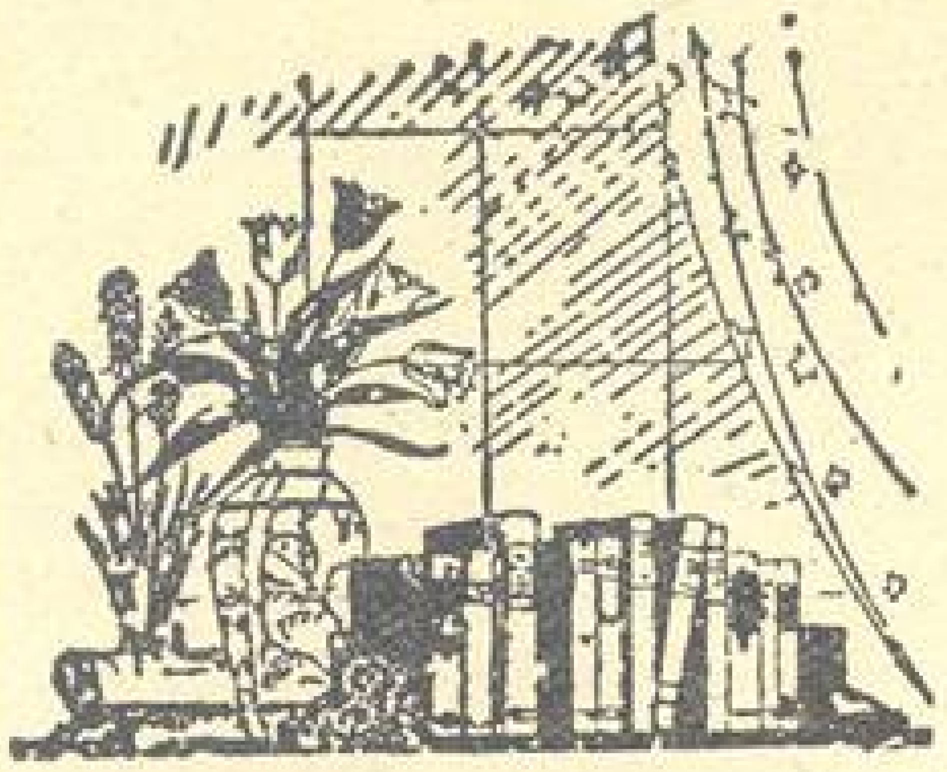
●

خبـــز وملـــح

تأليف بولس سلامة ـ ٢١٠ صفحة ـ من الحجم الكبير ـ منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت

قرأت بشوق ولذة كتاب بولس سلامة « خبز وملح » ، حتى اذا فرغت من تلاوة فصوله التي تبحث قضايانا الاجتماعية العامة بصورة قصصية طريفة ، سألت نفسي : اما كفى بولس سلامة ان يبدع فن الملاحم الشعرية في الادب العربي ، حتى أقبل يجدد عهدا « جاحظا »

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر

يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العـادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩ — Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

كنا حسبنا انفسنا بعيدين عنه ، فاذا هو في كتاب « خبز وملح » قشيب الحلة ، جميل الاطلالة ، شائق الاستطراد ، الى اسلوب احل المؤلف بيانه فيه ، على حد تعبيره ، « مقاما وسطا ايضاحا للقارىء الوسط ، واجلالا للمثقف لئلا ابالغ في التسهيل ، فيحسبني قد اتهمته في معرفته وسرعة ادراكه » .

ولعل أشد ما أثار اعجابي بالروح التي تشيع في « خبز وملح »، ذلك التفاؤل المقيم الذي لم يبارح نفسية بولس سلامة (ولا نثره ولا شعره) ، حتى في ابان اشتداد محنته الجسدية ، يوم كانت (تتداوله) ايادي النطاسيين في المستشفيات ، فلا يكاد يطيب جرح في جسده ، حتى ينفتح له جرح جديد . فانت قد تتوهم رغبة بولس سلامة في الهدم ، الا انه هدم المفاسد ، والتقاليد العتيقة والشرور ، والاثام ، وبدون هذا الهدم ، لا تقوم لبناء متين قائمة .

على ان الاسلوب الاستطرادي الذي اعتمده بولس سلامة في « خبز وملح » ، يتميز بالتركيز والتنظيم خلافا لابي عثمان الجاحظ الذي كانت تتداخل مواضيع كتبه ، وتتشابك ، دون ما نظام يربط بينها ، ودون ما تصميم يحقق التناسق والانسجام بين الوقائع والاهداف . ولعلي غير مخطىء اذ اقول : ان الثقافة القانونية التي يتمتع بها بولس سلامة ، القاضي السابق ، تنعكس على « خبز وملح » ، رغم اسلوبه الاستطرادي ، اكثر مما تنعكس على اي مؤلف اخر من مؤلفاته .

يتضمن « خبز وملح » اربعين موضوعا ، بل اربعين اقصوصة تحدث بها « بهزار » الذي لا تختلف شخصيته واراؤه بشيء عن المؤلف ذاته ، على لسان رفاق الجبل ، في اسمارهم ، او في اجتماعاتهم المختلفة حول مواضيع منتقاة من صميم المجتمع » ، يعالجها المؤلف بكثير من الموضوعية والتجرد ، وتشيع فيها رصانة تتفللها دعابة مستملحة ، فلا تبلغ حدود التزمت المقيت .

واذا كان من المستصعب الالمام ، في هذه العجالة ، بكل ما عالجه بولس سلامة من مواضيع ، في كتابه الجديد ، فلا اقل من ان نلمح الى ثلاثة نماذج ، نختارها اتفاقا ، مما ورد في كتاب « خبز وملح » .

تحدث بولس سلامة عن « البخلاء » ، فقدم شخصية عم «فائز» الذي « لم يفز بشيء سوى ارث ضئيل جاءه من عمه العقيم ، ويزعم بعضهم ان ابن الاخ عيد يوم ارتحل عمه عن الدنيا ، فأولم لاصحابه عشراء السوء وليمة شربوا فيها نخب موت عمه البخيل الذي كان يكثر الملح في الطعام ليملأ جوفه بالشرب المتواصل ، فيشبع من الماء ، ويدخر الخبز . وقلما كان يقتات بسوى الصعتر والترمس ، فاذا الهب الملح حنكه ، تحلى بشيء من الخروب البري ، او بقطعة ملبس مما ينثر في العرس ، وقد سقطت في السياج فنجت من اقدام الجمهور ، فخبأها للساعة المرة .. »

بهذا الاسلوب يستطرد بولس سلامة واصفا العم الشحيح فيقول : « ومما يروى عن ابتكاره في الشح انه لا يخلع الحذاء قبل مصاحبته سنتين ! فسئل في ذلك ، فقال انه يمشي على عقب الحذاء ستة اشهر ، ويتوكأ ستة اخرى على مقدمه ، ثم يعتمد على كل من الجانبين ستة اشهر ، فضلا عن انه يدوس الثرى دوسا رفيقا ، لا تيها ولا اختيالا ، بل ضنا بالنعل ان تتهرأ ، ولا يلتزم في سيره الا السمت المعبد ، فيتجنب الجنادل والحصى وكل محدد الاطراف من الحجارة ، فليس افتك منها في النعال » .

ولا يكتفي بولس سلامة بوصف افانين البخيل ووسائله واساليبه، بل يتغلغل الى اعماق نفسية البخلاء المنطوية على الدناءة ، والضعة ، والخساسة ، اسمعه يقول عن ذلك البخيل النموذجي : « ومما يروى عنه ان احدهم صفعه اربع مرات ، فرفعه الى القاضي ، فاراد القاضي ان يصلح ذات البين ، فقبل المدعى عليه ان يدفع للمدعى الشحيح ليرة عن كل صفعة . فلما تراضيا على ذلك خرجا من المحكمة، ولم يكن لدى المدعى عليه سوى ورقة نقدية من فئة الخمس ليرات ، فاخذها الشحيح وقال له : ليس لدي ليرة اردها اليك ، فصفعه المدعي عليه الفكه ، وقال ضاحكا : هذا هو الرصيد ، فتلقاها الخسيس بعين الرضا !! »

وفي كتاب « خبز وملح » آراء متناثرة هنا وهناك في السياسة، والانظمة الاجتماعية المتباينة ، قد تختلف نظرتنا اليها عن نظرة استاذنا الجليل بولس سلامة، ولكننا لا نستطيع الا ان نقر بأن معالجتها، من جانبه كانت متسمة بالمنطق المتجرد ، لا بالغائية المتزلفة .

وعلى الرغم من ان « خبز وملح » ، كتاب نثري ، فان بولس سلامة الشاعر المحلق ، لم يسل الشعر ، يعطر به النثر حينا ، او يستشهد به ، في حديثه على الملاحم ، حينا اخر .

ومن احق من بولس سلامة ، بالحديث عن الشعر والملاحم ، وهو صاحب « عيد الغدير » وعيد الرياض » ، و « عيد الستين » اولى الملاحم في الادب العربي ؟ اسمعه يستشهد بابيات ملحمية فخرية ، وردت في احدى قصائده ، يقول فيها :

يختار زهر قوافيه من الشهب	آمنت بالشعر علوي المدى شمما
مهلهلا ، دنس الديباج والارب	آثرته ملحمي السبك ، لا غنجا
فمن أتى لاحقا ، يجري على عقبي	عيد الرياض ، سبقت الاولين بها
وهي الفتية ، لم تكهل ولم تشب	سيهرم العصر،بعد العصر، منصرما
فكلما انتسبت فاءت الى نسبي	ان الملاحم لم تبرح مناط يدي

ولطالما ان بولس سلامة نفسه ، يعترف في مقدمة كتابه ان « خبز وملح » كتاب « جبلي المولد ، لبناني الموطن ، عربي اللسان ، واطيب ما فيه خاتمته (المحبة) » ، فمن المفيد ان نقرأ « القطعة الخالدة » التي قولها بولس سلامة ، الاب بطرس احد اشخاص كتابه ، وعلى الاخص ما ورد فيها حول المحبة التي كانت مسك ختام كتابه القيم » .

يقول المؤلف على لسان (الاب بطرس) « مسكين هو المبغض ، كم يتألم ، يتآكل الحقد صدره ، ويوتر اعصابه ، وربما اجتلب لنفسه مرضا في القلب ، او علة في الكبد ، فيكون هو الجاني على نفسه ، وتكون عقوبة الخطيئة من الخطيئة نفسها » .

ثم يقول : « الفردوس المفقود كان محبة بين الله والانسان ، وبين الرجل والمرأة ، والفردوس المسترجع يصبح محبة الانسان لجميع الناس ، اما البغضاء ، فهي جهنم الموصولة من جيل الى جيل ، المحبة فوق العدالة ، ومع ان العدالة ركن الوجود فانها ، وحدها ، تظل باردة . العدالة تحفظ النظام ، والمحبة تخلق وتلهب وتحرر . لذلك فسرور السماء بخاطيء تائب اوفر من سرورها بتسعة وتسعين بارا » .

وبعد ، فالكتاب مجمل احاديث الجبل ، في لبنان ، على ما يمتاز به من شمولية في التفكير ، ومن تقاليد الجبل ، ارتباط ابنائه بالوفاء لكل ضيف يشاركهم ، على موائدهم ، اكل « الخبز والملح » . ولعل ذلك هو الصدى الذي تردد ، في خاطر الشاعر الكبير بولس سلامة ، حين دعا قراءه الى مشاركته في تناول « الخبز والملح » على مائدة ادبه القيم .

فوزي عطوي

•

زينب والريس حميدو

مجموعة قصص – تأليف محمد القرش – (؟) صفحة – مطبعة (؟)

عرفت الاستاذ محمد القرش كاتب قصة عند قراءتي لقصته « الدنيا

بخير » التي قدمه فيها استاذنا الجليل محمود تيمور في مجلة « القصة » اوائل صدورها ، ثم اتهمته بعض الاقلام بأنها مقتبسة من عمل لكاتب القصة الايطالي ألبرتو مورافيا .. وربما كان ذلك تعسفا لا يخلو منه وسطنا الادبي . ثم قرأ قصة اخرى في ندوة القباني لم تعبر عن نفس الوجه الذي عبرت عنه قصة « الدنيا بخير » من حيث المضمون والشكل فقد كانت مختلفة عنها تماما بالنزول الى أدنى المستويات خاصة في المضمون .

وهو كاتب مجتهد .. يواصل العمل من اجل انتاجه .. ومن مواصلته الجهد صدرت له المجموعة القصصية التي نحن اليوم بصدد مناقشتها من عشر قصص وهي « زينب والريس حميدو » في مشروع الكتاب الاول عن المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب مقدمة الاستاذ ثروت اباظة .

ونظرتي للمجموعة قسمتها قسمين : قسم للشكل ، والقسم الاخر للمضمون ومن حيث الشكل او التركيب القصصي فهو شكل يسير .. لا يرهق القارىء ولا ينبت في ذهنه الشك بالافتعال للاحداث ـ ما عدا بعض الملاحظات ـ على قدر انطباعي ـ مثل ما في قصة « لماذا تخليت عنا » فواضح من اولها ان البطل يحادث بلسانه زوجته « من المتكلم الى المخاطب » وتظل القصة على هذا النسق الى ان تخون المؤلف فيكتب موجها القول الى القارىء فيقول « وعجز لساني عن الرد عليها .. الخ » وذلك كي يستطيع ان يحكي ما يريد وكان من الممكن صياغة الاحداث حتى يستطيع ان يسير على خط واحد في المخاطبة الى ان تنتهي القصة .. ودليلي بأن الامر خانه انه عاد بالبطل كي يخاطب زوجته كما بدأت القصة فيقول « بل كيف احزن وقد رحلت أنت نفسك .. هل هم أغلى منك ..؟ الى ان ينهي القصة على نفس النمط بقوله لها « لماذا تخليت عنا ؟ »

وفي نفس القصة قد وضع جملة اعتراضية مخاطبا بها القراء وهي « والا فستضربها تصوروا هذا .. ستضربها ان لم تسكت .. ص٤٦ وكان من الممكن ان يظل الحديث للزوجة في هذا المعنى ايضا فيكون التناسق اجمل .

اما باقي القصص فبناؤها متكامل وفي نسق جميل وتسلسل سهل وكلمات مشرقة وتصوير داخلي لما يريد اظهاره على القارىء تصويرا لغويا دقيقا لطيف الوقع على الاسماع كما يقول في نفس المعنى الاستاذ ثروت اباظة في مقدمته « وتمضي احداث القصص في طبيعية فلا نجد الكاتب يقيم حولها الضجيج المرتفع الصوت وانما يكتفي بأن يسوقها اليك تغنيك حقيقتها عن أي ضجيج يرتفع من حولها فتشعر بانك ازاء قصاص مطبوع لا يحاول ان يزيف على القارىء احساسات لا تنبت عن الاحداث » .

ولا يهدم هذا الاعجاب المشترك بالشكل كون الاستاذ القرش يجنح الى كتابة تمهيدات طويلة رهيبة الانفعال حتى يصل بنا الى ذروة تصلح في ذاتها ان تكون البداية وخصوصا لقصة قصيرة ..

وذلك واضح في « زينب والريس حميدو ، لماذا تخليت عنا ، الاقدام الباردة » . هذا من ناحية الشكل ..

اما من ناحية المضمون .. فمن رأيي دائما ان المضمون راجع الى الكاتب ذاته .. تلونه وتضع عليه البصمات تجاربه وانفعالاته وثقافته على ألوانها عميقة كانت او سطحية ضيقة كانت أو واسعة .. وكذلك شخصيته وجوانب نفسه وكذلك رأيه فيما يعرض له .. كل ذلك هو الذي يحدد المضمون في العمل الفني شعرا كان أو قصة أو لوحة. ومن التعسف بل من التسلط ان نطالب كاتبا بمضمون معين .

وقياسا على ذلك لا اجد من حقي ان اقول عن مضمون قصص الاستاذ القرش الا ملاحظتي الشخصية كقارىء له مستندا في ملاحظاتي هذه الى كل تلك الاسباب المتقدمة فلاحظ الاندماج في أفكار كتب عنها الكثير .. ولولا براعته في الكتابة والتصوير لكانت مملة .. وعدم الارتباط بتغيراتنا الاجتماعية وقد أصبحت عريضة تحتوي كل جانب من جوانب الحياة وكذلك فلم يتعرض لشيء من ذلك في قصصه اذا تجاوزنا تعرضه لزحام المواصلات بشكل واضح من خلال قصته « زحام في الترولي باس » وكذلك لعمل المرأة وان كان اتخذه وسيلة لان يحكي من خلالها قصة الخيانة التي اوشكت ان تقع وبذلك لا يمكن ان تكون القصة عن اشتغال المرأة خارج بيتها .

كما الاحظ ايضا ـ وبوضوح ـ نظرة الدم تتفشى في المجموعة بين قتل وتعذيب وموت وانتحار مثل قصص « هل تلومونني ، عنتر، زينب والريس حميدو ، لماذا تخليت عنا ، لا لن أعود ، الاقدام الباردة .. » حتى الحب لو تحدث عنه فيأتي به في ثوب من الاسى والحزن والخيانة والعذاب والتحسر أي لا يظهر لنا الحب الا من خلال المأساة مثل قصة « زينب والريس حميدو ، الدراجة ، وعاد اليها » .

ولقد عرفت الاستاذ محمد القرش شخصيا منذ وقت قصير لكنه أثر في نفسي برقته التي تتضح في اسلوبه وانسياق الاحداث في قصصه وأثر في نفسي بفكاهته ومرحه اللذين لم اجدهما في مضمون أي قصة في المجموعة .. ولا أدري لماذا يجنح الى روح المأساة التي تتمثل في العداء وفي الدم وفي الندم وفي الخطأ وفي القتل وفي غير ذلك من مظاهر باكية .

ولا يسعني في النهاية وأنا اكرر ان هذه ملاحظات لا تزيد عن انطباع زميل أحب الكاتب واعجب به من قبل اللقاء .. لا يسعني الا ان اهنئه بالمجموعة وابدي أعمق الاعجاب بها .. وبالذات قصة «اليوم الاول » فلن تغيب عن ذهني مطلقا وتليها قصة « الدراجة » ، فهما عن عالم أحبه وذكرتاني بكاتب روسي اعجب به هو « يوري ناجيبين » من ملامحه انه يكتب عن عالم الطفل .. وهاتان القصتان في قمة قصص المجموعة وتليهما ـ عندي طبعا ـ « هل تلومونني » وان كنت لم اجد الولد مسؤولا ابدا عن موت ابيه الا في وهمه .. ولا يبدو غير ذلك من سياق القصة ، زحام في الترولي باس ، ولماذا تخليت عنا ، وزينب والريس حميدو ، وعنتر .

ورغم جودة قصص : الاقدام الباردة ، لا لن أعود ، وعاد اليها .. اقول رغم جودتها فالمضمون كان قاسيا نوعا ما ..

واكرر تهنئتي للاخ الزميل الاستاذ محمد القرش بمجموعته ولي بتعرفي عليه ..

والى اللقاء في الكتاب الثاني ان شاء الله اجمل من الاول بالذات من ناحية الطباعة وشكل الكتاب .. ومن حيث المضمون بافاق اوسع واشمل واكثر اتصالا بالمجتمع الجديد الذي نعيش فيه افراحا وأحزانا غير ما تعودنا عليه قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

القاهرة — **عبد المقصود حبيب**



ظهر حديثاً

● الديارات ، لابي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (المتوفي سنة ٣٨٨هـ ـ ٩٩٨م) ـ تحقيق كوركيس عواد ـ الطبعة الثانية ـ ٥٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة المثنى ببغداد ـ مطبعة المعارف ببغداد .

● فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس ، المهداة الى جامعة الحكمة ببغداد ـ تأليف كوركيس عواد ـ تقديم الاب رتشرد جوزف مكارثي اليسوعي رئيس جامعة الحكمة ـ ٢٢٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبوعات جامعة الحكمة ببغداد ـ مطبعة العاني ببغداد .

● المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين (١٨٠٠ ـ ١٩٦٥) ـ تأليف كوركيس عواد ـ ١٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة العاني ببغداد .

● فهرست المخطوطات العربية في خزانة قاسم محمد الرجب ببغداد ـ بقلم كوركيس عواد ـ القسم الاول ـ ٣٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي ـ مطبعة المجمع العلمي العراقي ببغداد .

● فهرست المخطوطات العربية في خزانة قاسم محمد الرجب ببغداد ـ بقلم كوركيس عواد ـ القسم الثاني ـ ٣٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الارشاد ببغداد .

● بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر ـ تأليف عبد الجبار داود البصري ـ ١٠٦ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٤ في سلسلة الكتب الحديثة ـ منشورات مديرية الثقافة العامة بوزارة الثقافة والارشاد ببغداد ـ مطابع دار الجمهورية ببغداد .

● محمد كرد علي ـ تأليف جمال الدين الالوسي ـ تقديم محمد بهجة الاثري ـ ٣٦٨ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٢ في سلسلة الكتب الحديثة ـ منشورات مديرية الثقافة العامة بوزارة الثقافة والارشاد ببغداد ـ مطابع دار الجمهورية ببغداد .

● تعليم اللغة العربية في نيجيريا ـ تأليف سليم حكيم ـ ١٣٢ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٢ في السلسلة الثقافية ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد العراقية ـ مطابع دار الجمهورية ببغداد .

● الصراع على الخليج العربي ـ تأليف سليم طه التكريتي ـ ١٤٨ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٢ في السلسلة السياسية ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد العراقية ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

● الايديولوجية العربية ـ تأليف الدكتور ياسين خليل ـ ١٨٦ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٣ في السلسلة السياسية ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد ببغداد ـ مطابع دار الجمهورية ببغداد .

● الاشقياء ـ مسرحية شعبية انسانية في ثلاثة فصول ـ تأليف عبد الستار العزاوي ـ تقديم فتح الله الخيالي ـ طبعة ثانية منقحة ـ ٦٨ صفحة ـ الكتاب الاول في السلسلة المسرحية ـ منشورات جمعية حماية الفنون والاداب في العراق ـ (لم يذكر اسم المطبعة).

● شهرزاد في خيام اللاجئين ـ قصيدة طويلة ـ عبد الجبار عبد الحسين خضر ـ تقديم محمد علي الخفاجي ـ الغلاف والرسوم الداخلية لحسني ابو المعالي ـ الخطوط لرفيق اطيمش ـ ٦٤ صفحة ـ مطبعة اهل البيت بكربلاء العراق .

● الفن والحياة والاجتماعية ـ تأليف شارل لالو ـ ترجمة الدكتور عادل العوا ـ ٣٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الانوار ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● عبير ومجد ـ تأليف اسمى طوبي ـ ٣٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة قلفاط ببيروت .

● احاديث في الادب ـ تأليف خليل ابراهيم الفزيع ـ ١٧٦ صفحة ـ مطابع النضال بدمشق .

● صراع مع الماضي ـ مجموعة من قصص الوجدان والعاطفة ـ تأليف ابراهيم المصري ـ ٢٤٠ صفحة ـ حجم كبير ـ سلسلة الكتاب الماسي ـ منشورات دار الكاتب العربي بالقاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

● ملامح العصر ـ تأليف محيي الدين اسماعيل ـ ١٥٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● البحر لا ماء فيه ـ مجموعة قصصية ـ تأليف احمد ابراهيم الفقيه ـ تقديم كامل المقهور ـ مصمم الغلاف فرج فليفل ـ ١٦٦ صفحة ـ منشورات اللجنة العليا لرعاية الفنون والاداب بوزارة الاعلام والثقافة الليبية ـ مطابع وزارة الثقافة والاعلام بطرابلس ليبيا .

● ابن غلبون مؤرخ ليبيا ـ تأليف علي مصطفى المصراتي ـ ١٨٤ صفحة ـ سلسلة الكتاب الليبي رقم ٢ ـ منشورات اللجنة العليا لرعاية الفنون والاداب بوزارة الاعلام والثقافة الليبية ـ مطابع وزارة الثقافة والاعلام بطرابلس ليبيا .

● داود باشا ونهاية المماليك في العراق ـ تأليف الدكتور يوسف عز الدين استاذ الادب الحديث بكلية الادابـبجامعة بغداد ـ تقديم علي البصري ـ ٨٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار البصري ببغداد.

● رباعيات الخيام ـ ترجمة ابراهيم العريض ـ ١٢٨ صفحة ـ مع عدة لوحات ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت .

● تحت الرماد ـ مجموعة شعرية ـ فوزي عطوي ـ ١٤٨ صفحة ـ منشورات مؤسسة المعارف ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● جيل الظمأ ـ رواية ـ الدكتور محمد عزيز الحبابي ـ الغلاف بريشة الفنان المغربي محمد القاسمي ـ ٢٥٤ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● رجال للبيع ـ مجموعة قصص ـ تأليف ديزي موصللي ـ ترجمة سعد صائب ـ النص الفرنسي ٨٠ صفحة ـ النص العربي ٨٠ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الاغاريد ـ مجموعة شعرية ـ محمد بن علي السنوسي ـ تقديم محمد سعيد العامودي ـ ١٠٦ صفحة ـ مطابع الاصفهاني بجدة .

● زغاريد ومطر بالفجر ـ مجموعة شعرية ـ علي صدقي عبد القادر ـ مصمم الغلاف فرج فليفل ـ ١٧٤ صفحة ـ منشورات اللجنة العليا لرعاية الفنون والاداب بوزارة الاعلام والثقافة الليبية ـ مطابع وزارة الاعلام والثقافة بطرابلس ليبيا .

● **L'Egypte Moderne — par Nada Tomiche, Agrégée de L'Université, Docteur ès Lettres — 128 pages — Collection Que sais-je ? — Presses Universitaires de France, Paris.**

● **Poèmes de la Mémoire de l'Avenir — Georges Linze — 80 pages — Editions «Anthologie», Liège, Belgique.**

جولة الأديب في شهر

لقاء مع الدكتور حسن عون عن الشاعر اللاتيني تيبول

يعد الدكتور حسن عون ، استاذ العلوم اللغوية باداب الاسكندرية ، رسالة الدكتوراه الثانية التي تقدم بها سنة ١٩٤٧ الى السوربون عن الشاعر اللاتيني تيبول ، لكي تصدر في كتاب يضاف الى المكتبة العربية التي تحوي ثلاثة كتب مماثلة على جانب كبير من الاهمية .

اول هذه الكتب عن الشاعر اللاتيني « هوراس » للدكتور لويس عوض (النهضة المصرية ، ١٩٤٧)، والاخران عن الشاعرين الاغريقيين : « هوميروس » للدكتور صقر خفاجه (نهضة مصر ، ١٩٥٦) ، و«سافو» للدكتور عبد الغفار مكاوي (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧) .

وتيبول احد اولئك الشعراء العظام الذين عاشوا حياة خاطفة في النصف الاخير من القرن الاول قبل الميلاد (٥٤ او ٤٨ — اخر ١٩ او ١٨، على الترجيح) ، في هذه الفترة الزمنية التي تاهب البشر فيها لاستقبال السيد المسيح بدعوته السمحة ، وازدهر فيها الشعر اللاتيني بظهور اكثر من شاعر عظيم ، نهل من الحياة مباشرة ، وعبر بصدق عن رؤياه للحقيقة .

فان لم يكن دفاع تيبول الحار عن السلام ، وتنديده بالحروب ، وحلمه الاكبر بالحياة الهادئة في ضيعته « بيدوم » ، استجابة مسبقة للدعوة التي تنبأ بها في العهد القديم اشعياء وهوشع وزكريا ، فلتعتبر صدى من تلك الاصداء الشعرية القديمة التي ترجع ايضا لنحو ستة قرون خلت ، مذ اخذت سافو تغني للحب في جزيرة لسبوس ، ويصوغ الشعراء على مر العصور نزعاتهم الانسانية ، حتى معاصره العظيمفيرجيل

وقد اشتهر تيبول بحبه العميق لديليا الفقيرة الجذابة ، التي خطف بصرها بريق الذهب ، فتنكرت له ، وفضلت الثري الطاعن في السن على الشاعر الصغير الخالد الذي ندب سوء حظه ، وكاد ، وهو يراها تبيع القيم الروحية بمتاع الجسد ، يخرج عن طوره ، ويناديها ، في الكتاب الثالث ، باسمها الحقيقي بريا . ثم، حين دارت عليها الدائرة، غفر لها بما في المحبين الحقيقيين من ضعف ، وتلقاها ، من بعد ، بالعقل الا العاطفة ، كما نطالع في القصيدة السادسة من الكتاب الاول التي يستهلها بتصوير قدرتها البالغة على اظهار غير ما تبطن — هذا السلاح الذي تمنحه الطبيعة للانثى الضعيفة دون الذكر : « تكشف لي دائما عن وجه باسم ، ولكن لا تلبث الا ان تكن لقلبي البائس شقاء وعلقما » .

كما ان علاقة تيبول بالفتى اليوناني ماراتوس ، التي نشأت بعد عزوف ديليا عنه ، لا تزال مكتنفة بالغموض ، لقلة ما يرد في المراجع القديمة عن حياته القصيرة . وتقف صداقة تيبول للقائد العظيم ميسالا على درجة عالية من المتانة والتقدير المتبادل ، لما بسطه على الشاعر من رعاية ، جعلته يردد اسمه كثيرا في اشعاره ، ويوجه اليه الخطاب ، رغم الفروق الواضحة بين رجل الكلمة ورجل السلاح . وميسالا هو الذي لعب دورا هاما في حياة روما السياسية ، وان لم يتمكن الشاعر، بسبب المرض المفاجيء ، ان يرافقه في حملاته الى الشرق .

وخلال هذه القصائد ، التي كان لحياة تيبول اثر كبير فيها ، رفع من قيمة الشعر الى اخر المدى ، وعبر عن عواطفه الرقيقة واخلاقياته واحزانه ، وتغنى بحب مصر ونيلها ومعابدها ، واورد ، في مواطن عديدة ، آلهتها التي كانت الاعياد تقام لها في ايطاليا منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، وفي قلب روما نفسها ، حيث كانت ديليا تعتنق ديانة ايزيس .

ويتألف نص كتاب الدكتور حسن عون من ثلاثة فصول ، تناول في الفصل الاول حياة الشاعر : يعرف به وبفنه ، ويحلل شخصيته والشخصيات التي ارتبط بها . وفي الفصل الثاني ترجم عن اللاتينية رأسا القصائد العشر التي يتكون منها الكتاب الاول من ديوانه ، واضعا بين يدي كل قصيدة مقدمة موجزة عن المعاني التي استنزلها الشاعر . وهي لا تغني بحال عن قراءة القصائد نفسها المترجمة بلغة عالية تتسم بالوضوح الا فيما ندر . نفس المنهج الذي اتبعه الاستاذ امين سلامة في ترجمة « الالياذة » و « الاوديسا » عن اليونانية رأسا ، مما يوفر الامانة والدقة ، والتوطئة بتلخيص اناشيدهما الاربع والعشرين .

ثم علق الدكتور في الفصل الثالث على الاصطلاحات واسماء الالهة والاساطير والعادات التي وردت في القصائد ، وقارن بينها وبين ما يعرف عن الشعوب القديمة الاخرى والحديثة — ومصر في مقدمتها — بما يقدم الدليل على وحدة المنبع ، وصيرورة بعض الظواهر الانسانية . اما المقدمة فقد وصف فيها المصاعب التي واجهته ، وارتياده تجربة ترجمة الاسلوب اللاتيني الى الاسلوب العربي دون مثال سابق يهتدي به ، اذ ان الاتجاه السائد في الدراسات كان الى اليونانيات ، وهو اول من خاض اللاتينيات. وفيلقاء مع الدكتور عون طرحت عليه هذهالاسئلة:

س : ما الذي دفعك الى اختيار تيبول المجهول تماما لدى الثقافة العربية ؟

ج : هناك عاملان دفعاني الى اختيار هذا الشاعر من بين الشعراء اللاتينيين جميعا . العامل الاول هو الذي اشرت اليه انت في سؤالك ، وهو عدم معرفة العالم الشرقي بهذا الشاعر . والعامل الثاني ما اظهره من حب عميق ، وتقدير بالغ ، لمصر وما يتصل بها من جو وطبيعة وعقيدة وعلم وفن — في الوقت الذي لم يوجد من بين الرومانيين جميعا من سلمت مصر من لسانه . ولاقرار الحق اذكر ان فيرجيل اشاد ببعض المظاهر الطبيعية في مصر ، واهمها وادي النيل وما يغدقه على المصريين من خير وبركة ، ومع ذلك لم تسلم عقيدة مصر وملوكها والهتها وسكانها من لسانه . وقد تم اختيار هذا الشاعر بعد ان اطلعت على التراث اللاتيني برمته ، وهزني في تيبول نزعته الانسانية الواضحة المتمثلة في دفاعه عن السلام .

س : الى اي مدى كان هذا الشاعر معبرا عن عصره ؟

ج : في حدود ما اتذكره الان ، وبعد ان شغلني امر الثقافةالعربية القديمة عن هذا التراث ، استطيع ان اقرر امانة هذا الشاعر في التعبير عن عصره من الناحية السياسية والاجتماعية والادبية . الا انه من الناحية الاجتماعية بالذات فاق غيره من الشعراء . ويمكن اعتباره بلا ادنى حرج شاعرا اجتماعيا في المحل الاول ، اذ انه صور في دقة وبراعة نادرة النظير العلاقات العاطفية التي كانت تتأجج في قلوب شباب روما هاتيك الايام ، واعطانا لوحات فنية رائعة تسجل ما كان يجري في هذه البيئات المتحررة . وعلى الرغم من انه لم يشتغل بالسياسة فقد اتخذ موقفا واضحا ازاءها : سار مع سياسة الامبراطور اوغسطس ، وجارى الجيوش الرومانية ، وفي المرة التي اقعده المرض عن مصاحبتها قدم اشعاره بديلا . ومن الواضح ان معاصرة تيبول لفيرجيل وهوراس وأوفيد دفعته الى مسامتة هذه الفترة الذهبية الخصبة من حياة الفن الادبي في روما .

س : اين يوضع تيبول من الادب اللاتيني ، والى اي مدى يدين

للادب اليوناني الذي اتقن لغته ؟

ج : على ضوء دراستي للتراث اللاتيني استطيع ان اقرر وانـا مطمئن ان تيبول يجيء في المرحلة التالية مباشرة لفيرجيـل . ويوضع هوراس ، الذي يمثل الفن العاقل ، اما في نفس درجة تيبول او فـي درجة اقل . والحق ان دين تيبول للادب اليوناني دين غير مباشر ، تم عن طريق العقلية الرومانية التي تمثلت جيدا هذه الحضارة .

س : من اين استقى تيبول هذه القدرة الفائقة على صياغة الصور الحية التي لا تزال احداثها تقع في بيئتنا وسائر البيئات ؟

ج : استقى تيبول صوره الحية من طبيعته النفسية المهياةبحسها المرهف ، ودقة الملاحظة ، وطاقتها العاطفية . وقد وفق ، بفضل قوته الشعرية الزاخرة ، في تقديم لوحات فنية ملهمة ، لا نكاد نجد واحـدة مماثلة عند هوراس مثلا .

س : هل هناك تشابه بين غزل تيبول وشعراء العربية القدماء ، ثم بينه وبين ابي نواس في الغزل بالمذكر ، وبينه وبين المتنبي الـذي تغنى في جزء كبير من شعره بسيف الدولة الحمداني وكافور ؟

ج : ما اكبر الشبه بين هذا الشاعر اللاتيني وشعراء الغزل في العربية وعلى رأسهم بشار بن برد . ويقتصر وجه الشبه بينه وبيـن ابي نواس على الموضوعات التي اثارت قيثارة شعر كل منهما . وبالنسبة للمتنبي فأن وجه الشبه يبتعد بين الشاعر المخلص الصادق والشاعر الجوال المتكسب .

الاسكندرية نبيل فرج

●

مجلة ((الاديب)) في يوبيلها الفضي

منذ افتقد لبنان مواسم الحرير ـ اعياده الرائعة ، اخذته حمى اللهفة الى الخير الضائع ، وقد شفه الحنين ، آمن شانه على الاعصر ببقـاء مواسم الكلمة ، على كل المواسم فراح اليها على نهم التائق الـى البقاء السرمد .

عندما كان العالم على حمى الاقتتال ، كان لنا في هـذا الجبل الاخضر ان نتطلع الى الحرف ونطلقه فكرا وجمالا علنا نمسح عن البشرية بعض البشاعة التي طلاها بها غيرنا فانتدب احد شبابنا الطالع ، البير اديب ، نفسه ، غير ملتفت الا الى الجمال ، واصدر مجلته ((الاديب)) ايمانا منه بقدره الحرف ، لكأنه نظر الى المواسم راجعة الى لبنان مع الكلمة الحكيمة والخيال المجنح .

ما التفت الا الى الجمال المجرد عن الحلى والزخارف والادهان . الحقيقة ارادها ولا الشمس على وضاحها .والكلمة رعاها جازءة معبرة دافعة مثقلة بالمعاني والاهداف على رشاقة وانسراح شانهاوغمامةالاعشى.

لما طلعت علينا مجلة الاديب ، حار غير قليل من ادبائنا بأمر هذا الرجل وهمومه ، وراحوا الى القول اين هو والعالم الغارق بالدماء حتى كاد الظن يتحول الى حقيقة والهمس الى البوح .

وبقي البير اديب مكبا على اداء رسالته ، وسارت مجلته دروبها الكأداء تسلخ من عرق صاحبها والدماء المتناثرة عـلى اشواك عقباته وحجارتها ، مدادا تخط به الرسالة التي اصبحت لالبير اديب ، فعـل ايمان ، توقفه عنه كفر وتجديف على المثل ، شان المؤمنين البررة الذين يرون ثوابهم متى الاستشهاد حلاوة ابتهال .

يقول بودلار في بعض من ابتهالاته الحميمة ، امنحني ايها السيد، الجراة والقدرة ، فارى الى قلبي وجسدي ولا اشمئز ، والان وقد كشف البير اديب رأسه وحذق بالشمس ولابهر ، نرى ان الخمسة والعشرين عاما التي طوتها مجلة الاديب بكل ما حملت ، لم تزد صاحبها الا استقتالا في سبيل رسالته على ابعد ما فيها حتى ليظن به الغلو متى الفـداء ابعد من حدود المادة .

وخمس وعشرون سنة ، يعمل صامتا ولولا بعض الخيرين من اسياد الكلمة ، لبقي العامل الصامت ، شان كل فنان عريق ، مستترا وراء روائعه ، التي هي مجلة الاديب .

خمس وعشرون سنة من العطاء ، فيه العفوية ابعد من غريـزة واقوى من البذل ، فأين ما قدمناه نحن في عيده الفضي مما راع من بين انامله في هنيهاته السمحاء ..

انكتفي بالدعاء ، ونترك هذا الرجل يصارع الازمات وقد ناله منها اكثر من وسام ؟

ايكفي ان ندبج المقالات ونحلي الكلمة في يوبيل الاديب الفضي . نشبع بها المطابع وتجار الورق .. اتستطيع الكلمة وحدها تسديد قوائم الحسابات ودفع العجز المالي ؟

اظننا اصبحنا على امر محتم في هذا الوطن اللبناني الكريم ، امر يحتمه الواقع ، ويأمرنا به ما نحمل من تراث عريق في مجال الكلمة ، ان نمد يدنا بالبذل الصادق ، ليس في مجال التكريم وحسب بـل بالعون المادي ، لهذه المجلات الادبية ، التي ليس لها الا ايمان اصحابها من عون وتقتريهم على انفسهم حتى العوز لاستمرار حياتها واكمال رسالتها.

نعم ((الاديب)) وسواها من المجلات الادبية ، هي عنوان لبنـان المعلم ، لبنان الحضاري هي وحدها المشعل الذي يجب ان يبقى مضاء، ينتقل من جيل الى جيل على تبادل يحمل الاشعاع ، شاننا على الادهر فلا ينقطع الوصل بين مآثرنا وما سيأتيه الاحفاد من مآثر .

نعم ((الاديب)) ومعها جمهرة من مجلاتنا الادبية ، ادت ولا تـزال تؤدي رسالة لبنان على ضنى المدنف التائق الى المواعيد ، وقد اوتي لها ان تنظر الى قلبها على انتشاء الفنان وقد ارتاح الى روائعه ، فكم منا ، نحن ادباء لبنان ، اغنياؤه ومفكروه ، يستطيع ، حتى القول اين نحن من رسالة هذه المجلات ، ان يكشف قلبه للشمس ، شأن اصحابها مظهرا ما قدمه ، ليس لهذه المجلات ، بل من اجل الابقاء على الاشعاع اللبناني ..

نعم مجلة الاديب وزميلاتها هي عنوان لبنان الحضاري ، فعلى كـل لبناني مؤمن بلبنانيته ان تكون له يد في دفع عجلاتها الى الامام ، وخير البر عاجله ، فقد والله آن لنا ان نرى الى العوز المالي الذي ذهـب بغير قليل من عناوين لبنان ، مجلاته الادبية ، فنبقى علـى البقية الباقية منها ..

في يوبيل مجلة الاديب الفضي ، علينا ان نبدأ عهدا جديدا فـي مجال الفكر فنحافظ على ادبنا محافظتنا على شعائرنا المقدسة ، والبذل في هذا المجال لكالقروض السماوية ، وحسب مجلة الاديب ان تعيد الينا الوعي الذي كادت تذهب به مادية العصر .

جريدة ((الهدف)) ـ بيروت فوزي سابا

●

المعرض الاول ((لجماعة الزاوية)) في بغداد

لقد دأب معظم الفنانين العراقيين في السنين السبع عشرة الاخيرة على العمل والعرض في جماعات يتميز بعضها عن بعض ، وتمثل بمجموعها دعامة قوية للحركة الفنية في بغداد .

غير ان الزاوية هو تجمع ستة فنانين كانوا الى ما قبل سنة واحدة ينتمون الى ثلاث جماعات مختلفة كلها ما زالت غزيرة النشاط .

ورغم التباين في اساليب اعضاء ـ الزاوية ـ فقد وجدوا انهـم يشاطرون بعضهم بعضا الهدف والنظرة في الفن ، وانهم يعملون معـا بانسجام . ولما كان كل واحد منهم قد صفق باسلوبه الشخصي ورؤياه الفردية ، فان عرضهم لاعمالهم معا يعني تركيز عدة مواهب فذة فـي نطاق واحد ، هذه المواهب التي عرف عنها وقعها القوي في ما يجري من نحت ورسم في العراق .

ففائق حسن ما زال من المؤثرين الكبار ، وهو احد الافراد القلائل الذين يعود الفضل اليهم في ما تحقق في الفن العراقي مـن عنفوان وحيوية في ربع القرن الاخير . ومحمد غني له نصيبه الكبير في انجاز

منحوتات تتصف بالرفاهة والتوتر وتجمع بين المقترب الشخصي وتقاليد النحت العراقية القديمة قدم سومر وقد تميز كاظم حيدر بما اكتشف من ارض جديدة للرسم العراقي من حيث اختيار الموضوع والمعالجة، كلاهما غير متوقع، في حين ان غازي السعودي اوجد دمجا جريئا بين الرسم العربي القديم والتقنية الحديثة. اما اسماعيل فتاح فانه يأتي لرسومه بضرب من البراءة المسرفة، ولمنحوتاته بصرامة نكاد نجفل لقوتها. واما فالنتينوس الذي افلح عن طريق اعماله وتدريسه، في خلق اهتمام كبير بالخزفيات، فانه يبرر هذا الاهتمام بما في فخاره وجمال خالص من صنعة نادرة.

لا ريب اذن ان اي معرض تقيمه ـ الزاوية ـ سيكون حدثا لا يمكن ان ينسى بسهولة.

بغداد ـ (دليل المعرض) جبرا ابراهيم جبرا

النقد وترويج الكتاب

اعتقد ان الرأي والنقد هو الذي يخلق القارىء. فالكتاب حينما يطبع في فرنسا او امريكا او انجلترا او الجمهورية العربية يتقبله القراء الاولون وهم النقاد بتلهف فيبدون فيه الرأي محبذين او ناقدين او مهاجمين، ويندفع الكتاب الذين لم يقرأوه بعد فيقرأون ويردون او يؤيدون، وعن طريق هؤلاء وأولئك يندفع الكتاب الى ايدي القراء بالرغم عن بعضهم في بعض الاحيان.

قابلت صديقا منذ بضعة ايام وبين يديه كتاب (فرنسي بالطبع) سألته فقال في حماس: كنت انتظره من اسبوعين، فقد كتبت عنه جريدة الفيغارو، وطلبه عدد كبير من القراء، وقد تأخر عنا طيلة اسبوعين فلم يصل الا اليوم.

ولكن الكتاب عندنا في المغرب يصدر ويعلن عنه في الصحف مثلا، وليس هناك قارىء تتحرك نفسه ليقرأه، لاننا ما نزال في حاجة الى الاعداد النفسي للقراءة. وهذه المسؤولية هي التي لم يشعر بها حتى الان الذين يستطيعون ان ينقدوا الكتب هنا في المغرب.

قال لي الاستاذ عيسى الناعوري ونحن نتبادل كتبنا عندما التقينا في تونس. ان الذي تهدي له كتابك عادة لا يقرأه. وهذا صحيح في البيئة العربية الى حد كبير، فالكتاب عادة يهدون كتبهم ـ في مقدمة من يهدونهم اياهم ـ للذين يستطيعون ان ينقدوا الكتاب. ولكن اذا كان هؤلاء لا يقرأون ما يهدى اليهم فكيف نرجو تكوين جيل من القراء اذا لم يقم هؤلاء بواجبهم في عملية الاعداد النفسي للقراءة ؟.

من هنا يتبين ان النقد هو الوسيلة الوحيدة لجلب القراء، اما الكتاب الذي يمر من السوق في جو هادىء، فسيظل ـ في بيئتنا الجامدة ـ كالبضاعة التي لا يعلن عنها مركونةفي قعر الدكان تأكلها القرضة

جريدة « العلم » ـ الرباط عبد الكريم غلاب

« الاديب » بعد ربع قرن

للمجلات الادبية فضل كبير على تقدم الحركات الادبية وازدهارها. ولمجلة « الاديب » يد واسعة في بلورة حركاتنا. وقد دخلت هذه المجلة، في مطلع هذا الشهر، عامها السادس والعشرين، وكلها ثقة بان تظل دوما ـ كما كانت ـ تخدم الادب العربي الخدمة الجليلة.

بدون انقطاع ظلت « الاديب » تصدر شهريا منذ ان تأسست. وقد شرعت صفحاتها، منذ عددها الاول، لمختلف كتاب الضاد. كما كانت مدرسة ثقافية ممتازة احتضنت كتابا ناشئين صاروا فيما بعد في طليعة قصاصي وشعراء ونقادة وفلاسفة البلدان العربية، وقد وجهتهم باخلاص نحو الكلمة الادبية المهذبة. وما برحت اليوم ترحب بانتاج الكتاب الطالعين، توجههم وترشدهم وتصحح عثرات اقلامهم، وتنقذهم من بعض السقطات والهفوات. والادباء الكبار يمدونها بمقالاتهم التوجيهية، وقصائدهم المتينة السبك، ودراساتهم النقدية البناءة، وقصصهم المستوحاة مواضيعها من صلب بيئتهم، ومحاضراتهم البليغة المعاني .. والعلماء يزودونها بمقالات تلقي انوارا كاشفة على اخر ما توصل اليه العلم الحديث .. وجميع محتويات « الاديب » تنشر بدون اي مقابل اعترافا من اصحابها بما للمجلة من فضل عليهم كبير عندما كانوا في اول طريقهم الادبي المليء بالاشواك.

وقد اعترضت طريق المجلة اللبنانية صعوبات مالية. على انصاحبها الاستاذ البير اديب استطاع ان يذللها بعدة طرق. وضع ما كان قد ادخره من مال في سبيلها. باع قسما كبيرا من مكتبته. انزوى داخل بيته، ورفض مغادرته قبل ان تصدر « الاديب » في اخر كل شهر في حلتها الكلاسيكية.

خمس وعشرون سنة خلون على صدور المجلة المدرسة. وستمر سنوات وسنوات والبير اديب ـ امد الله بعمره ـ ثابت القدمين، باسم الثغر، يعمل على بلورة الادب العربي في مختلف بقاعه، ويفتح احضان « الاديب » للمستشرقين يقدمون لها ثمرات اقلامهم الدسمة.

بدون ادنى مساعدة من المسؤولين عن الثقافة عندنا تابعت «الاديب» رسالتها الفكرية والتربوية والادبية والعلمية .. وستظل تتابعها متكلة على قرائها المنتشرين في كافة انحاء العالم. وسيظل البير اديب ـ الذي يعتبره الكثيرون من ادبائنا رائد الشعر الطلق في العالم العربي ـ يدقق ويراجع ويسهر على صدور « الاديب » بانتظام متضمنة مواضيع عميمة الفوائد وضعتها اقلام عربية نعتز بها.

مجلة « الجمهور » ـ بيروت ابراهيم عبده الخوري

اليانصيب الوطني اللبناني

مؤسسة حكومية مرصد ريعها لأعمال الاسعاف الاجتماعي

تعديلات هامة في جوائز اصداراتها

٢٠ اصدارا شعبيا	الجائزة الكبرى	٢٥٠٠٠ ل.
١٨ اصدارا شعبيا خاصا	الجائزة الكبرى	٤٠٠٠٠ ل.
٤ اصدارات سويبستيك	الجائزة الكبرى	٥٠٠٠٠ ل.
٧ اصدارات عادية	الجائزة الكبرى	٦٠٠٠٠ ل.



ملكة جمال لبنان لعام ١٩٦٦
الانسة يولا حرب

تدفع الجوائز في المديرية
معفاة من كافة الرسوم والضرائب